سلسلة الدراسات التوثيقية (45)

سياسيون وعسكريون عراقيون في أروقة المذكرات

محمد عبد الرحمن عريف

الطبعة الأولى 2025م

سلسلة الدراسات التوثيقية (45)

سياسيون وعسكريون عراقيون
في أروقـة المذكرات

محمد عبد الرحمن عريف

الطبعة الأولى
2025م

اسم الكتاب

سياسيون وعسكريون عراقيون
في أروقة المذكرات

المؤلف

محمد عبد الرحمن عريف

الإيداع القانوني

...../2025م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 121566207 - 00249122094856
البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:
الطبعة الأولى – 2025م
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(سورة الأنبياء)

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر

العماد الأصفهاني

إهـداء

إلـى روح أمـي وأبـي عليهـم رحمـات اللّه.. إلـى أم فلـذات قلبـي... «منّـة اللّه وفـرح وعمـار ومعـاذ»: اللهـم افتـح عليهـم فتـوح العارفـين، وعلّمهـم مـا جهلـوا، وذكرهـم مـا نسـوا، وافتـح عليهـم مـن بـركات السـماء والأرض، اللهـم يـا معلّـم موسـى -عليـه السـلام- علّمهـم، ويـا مفهّـم سـليمان -عليـه السـلام- فهّمهـم، ويـا مؤتـي لقمـان الحكمـة وفصـل الخطـاب.. آتهـم الحكمـة وفصـل الخطـاب.

المؤلف

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير لمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان، ودار آريثيريا للنشر والتوزيع لتفضلهم بنشر هذا الكتاب.

المؤلف

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	13
ساطع الحصري: في مذكّرات منظّر الفكر القومي العربي	17
فوزي القاوقجي: كيف تسببت الصراعات العربية في هزيمة حرب 1948؟ مذكّرات القائد العام لجيش الإنقاذ	32
صالح صائب الجبوري: كيف حضرت عنده "محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية"؟	51
فيصل بن الحسين: في مذكراته بين النشأة والثورة ونداء الوحدة العربية وصولًا للملكية العراقية	59
نوري السعيد: في مذكراته شخصية.. منازع الملوك في حقل العلوم السياسية قبل التاريخية	72
عبد السلام عارف: في مذكراته من زنزانة السجن إلى كرسي الرئاسة	87
محمد مهدي صالح: درء المجاعة عن العراق/ معركة الحياة ضد الموت	101
جواد هاشم: (مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدام)	115
إياد علاوي: علاقته بصدام حسين	125
نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي: "كتاب الأزمة: مذكرات مقاتل"	133
رعد مجيد الحمداني: شهادة أدلى بها قائد الفيلق الجنوبي بالحرس الجمهوري	142

مقدمة

هي المذكرات نوع من أنواع الكتابة التاريخية يعني بوصف الأحداث وتعليلها، وبخاصة تلك التي لعب فيها كاتب المذكرات دورًا أو تلك التي عايشها أو شهدها من قريب أو بعيد. وقد انتشر أدب المذكرات بعد الحرب العالمية الثانية فأصبح من عادة القادة العسكريين ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات أن يفرغوا، في أواخر حياتهم، لكتابة مذكراتهم، وهناك رأي أن الفرنسيين فاقوا غيرهم من الشعوب في هذا الفن الأدبي. ومن أشهر كتاب المذكرات عندهم، الدوق "دو سان سيمون وشاتوبريان". و"الجنرال ديغول". وإن كان هناك المذكرات التي كتبها الضابط الإنجليزي "المارشال مونتغمري"، والرئيسان "نستون تشرتشل" رئيس الوزراء بانجلترا و"ريتشارد نيكسون" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم.

المذكرات.. هل هي تاريخ شخصي أم أرشيف ذكريات؟. هل هي مجرد سجل يومي محايد أم هكذا تبدو؟. ربما كانت وسيلة هروب من وطأة الواقع، أو تخليدًا للحظة ما لا يرغب صاحبها في أن تموت. قد يجملها ويكسوها بما يشاء، ربما يجنح به الخيال ويتوهم حدوث ما لم يحدث، ليصنع حياة زائفة تتوازى مع الحقيقة. وفي حالات أخرى قد لا يجد الانسان مفرًا للانعتاق من تفاصيل حميمة أو ذكريات جارحة تلاحقه، سوى الكتابة، يحول الأشياء حروفًا يلقيها أمامه على الورق يتركها لتُقرأ مرارًا حتى تذوي لعله يرتاح.

البعض ضد كتابة المذكرات ولا يحب العودة إلى تفاصيل الماضي، لأنها لا تضيف شيئًا، ويرى البعض أن ظاهرة كتابة المذكرات أو اليوميات قديمة قدم التاريخ، بدأت مع المؤرخين القدامى والرحالة والمغامرين والمستكشفين سواء من الغربيين أو غيرهم، وخير مثال على ذلك العالم المرموق ابن

خلدون الذي شرح أحوال الأمصار، وتجول في كل الجهات يلاحظ ويكتب ويوثق. فهذه المذكرات بشكلها الراهن بدأت عند المستشرقين أو الفاتحين الذين جابوا ما وراء البحار وكتبوا عن مجتمعات أخرى مختلفة تماماً في العادات والتقاليد، فسجلوا ملاحظات مهمة تشير إلى أحوال الأمم. ثم درس علماء الاجتماع أحوال المجتمعات البدائية وعقلوا على عاداتهم في أدغال الأمازون أو مجاهل افريقيا.

في الوقت الراهن أصبح كل فرد يكتب ملاحظاته ويومياته وهذا سلوك حضاري نشاهده بكثرة عند الأوروبيين، فلا نجد أحدًا منهم إلا ويكتب يومياته، وهذا السلوك الايجابي ينظر له الغرب باحترام بالغ لأن حصيلة هذه المذكرات سيكون تاريخًا بالغ الغنى والتنوع. لذلك يميل الكثير من الغربيين إلى التفرغ للكتابة في عمر معين يساعدهم على ذلك الأرشيف الضخم من اليوميات التي دونت عبر سنوات طويلة. فلهذه الظاهرة جذورًا نفسية تستند إلى الرغبة في الخلود، وهذا سلوك يتفق عليه البشر ابتداء من رغبة الانسان في الانجاب وصولًا إلى سعيه لترك أثر ما يدل عليه بعد الرحيل ويخلد ذكراه.

نعم يمكن للشخص عندما يقرر البدء في كتابة مذكراته الشخصية أن يحدد الإطار الزمني الذي قد يحتاجه في ذلك، كما عليه أن يعرف تماماً أهم جزء من أجزاء المذكرات، والتي يجب أن يركّز عليها؛ لأنها تخاطب الجمهور المستهدف، حيث يمكن أن يكتب قصة حياته بشكل كامل، كما يمكنه الاكتفاء بجزء واحد منها، ويعد أخذ مثل هذه الأمور بعين الاعتبار أمراً ضرورياً للمحافظة على التركيز، وتوفير وقت خاص للكتابة بصورة دائمة.

هناك بعض الخطوات التي يمكن القيام بها من أجل كتابة المذكرات الشخصية وهي التفكير في حدث لا ينسى: يجب على الشخص قبل أن

يبدأ بالكتابة عن نفسه أن يفكر قليلاً لإيجاد حدث مهم حصل في حياته؛ فقد يكون تجربة تعليمية غيّرت حياته بأكملها، كما يمكن أن تكون تجربة تعلّم درساً قاسياً منها، مع ضرورة الاهتمام بأن ذكر هذا الحدث يعبّر عن الشخصية، أو آرائه، أو حتى توقعاته. وضع خطة للمذكرات: يجب على الشخص عمل جلسة عصف ذهني من أجل تدوين الكثير من الأحداث التي لا تنسى من الحياة، والتي قد تحمل في محتواها أثراً نفسياً كبيراً؛ مثل بعض اللحظات التي تحمل الشعور بالأسف، أو الندم، أو الخوف، حتى الذكريات المؤلمة، وبعد وضع مثل هذه الاقتراحات يجب استعراض هذه القائمة لتضييق الخيارات التي تحتوي في مضمونها على نمط زمني يوضّح كل الأحداث، من أجل وضع التفاصيل المسلّية والمثيرة للاهتمام، ثم تحديد موضوع المذكرات النهائي. العرض للأحداث وليس ذكرها فحسب: يجب أن يكتب الراوي كل الأمور من خلال وجهة نظره الخاصة، وكما يراها هو لأنه هو الذي اختبرها بنفسه، كما يمكنه تخيل الأحداث تمر أمامه حتى يشعر بها ويكتبها كما هي، وذلك بالتركيز على وصف الأعمال المختلفة والتصرفات التي حصلت بالتفاصيل المختلفة.

ثمة أفكار ينظر لها كثيرون على آنها (كلام فاضي) مع أنها هي ذاتها التي ساهمت كثيرًا في نجاح آخرين، من ضمنها (كتابة المذكرات الشخصية)، فيبرر بعضنا عدم اللجوء لذلك أو عدم اقتناعه بالفكرة من باب ما الفائدة.. وبعضنا يحجم خشية وقوع ما يكتب في يد آخرين فيستغلونها ضده وتصبح أسراره مكشوفة للجميع، فما هذه الفكرة وما فلسفتها وفائدتها؟ تقوم فلسفة هذه الفكرة على تدوين وتسجيل الإنسان للأحداث التي عايشها منذ استيقاظه حتى عودته للنوم ليلًا، وتنبع أهميتها من أن الانسان يتمتع بذاكرة مهما كانت قوية فهي معرضة لأن يتسلل لها النسيان، فتضيع منها أحداث مهمة قد يكون لها أهمية في حياته الخاصة أو تهم آخرين فتكون تبخرت. تساعد الإنسان على تقوية ذاكرته من خلال إعمال عقله

في استرجاع الأحداث التي عايشها في نهاره. تقوي اللغة التعبيرية عند الإنسان فيصبح مع الوقت والممارسة مجيدًا لتقنيات التعبير الجميل. ما يكتبه الإنسان قد يقوي عزيمته على الاستمرار في خطة حياته التي بدأها لأنه سيرى أمامه أحداثًا مهمة. ما يكتبه الإنسان الآن قد يصبح مصدر إلهام وتحفيز لآخرين يقرؤون ما يكتب فيتعلمون منه سواء في حياته أو بعد وفاته.

كتابة المذكرات تزيد من تركيز الإنسان فيما يراه أو يسمعه لأنه سيكتب ذلك ويحرص على أن ينقله بموضوعية بلا خلل أو ملل. كذلك فكتابة المذكرات تخلق عند الإنسان شعورًا بالمسؤولية والثقة بالنفس فينقل الأحداث بكل موضوعية. وتشعرك بأن لديك ما تتحدث عنه وتفتخر به أمام نفسك وأمام الآخرين. هي فرصة لتجري تقييمًا لنفسك بين فينة وأخرى، والتقييم يشمل طريقة استثمارك لوقتك ومالك وعلاقاتك وقدراتك التعبيرية. وتحسن الحالة المزاجية النفسية، فهي تخلصك من شحنات سلبية علقت بنفسك. كذلك فهي إعادة صياغة يومك ورسمه بالكلمات، فالمذكرات تجعلك دومًا في قلب الأحداث الماضية تستلهم منها العبر والعظات.

الكاتب

قناة السويس – مصر

ربيع – 2025م

ساطع الحصري: في مذكّرات منظّر الفكر القومي العربي[1]:

هو ساطع الحصري: «ابن خلدون» القرن العشرين، وأبرزُ القوميين العرب، وأحدُ أهم مُنظِّري الفكر القومي الحديث. ساطع بن محمّد هلال الحُصري، (5 آب/ أغسطس 1879– 24 كانون الأول/ ديسمبر 1968) مُفكر وكاتب سوري من حلب كان أحد رموز القومية العربية في العصر الحديث. أسس وزارة المعارف السورية عام 1919 ووضع المناهج التربوية في سورية والعراق، كما شارك في تأسيس كلية الحقوق في جامعة بغداد وكان مستشاراً لدى جامعة الدول العربية.

ولِد ساطع الحُصري باليمن عام 1879، عندما كان والده يعمل رئيساً لمحكمة الاستئناف في صنعاء. تنقّل مع أبيه في سنوات الطفولة، بين صنعاء وطرابلس الغرب وقونيا وأنقرة، حيث دَرس في المدارس العثمانية الحكومية والتحق بعدها بالمعهد الملكي في اسطنبول، ليتخرج منه عام 1900. امتهن التدريس وخدم في مدارس الدولة العثمانية في اليونان حتى عام 1906، لينتقل بعدها إلى السلك الحكومي ويتسلّم مناصب إدارية رفيعة في كل من اليونان وبلغاريا. عاد مجدداً إلى التدريس وانضم إلى الهيئة التعليمية في المعهد الملكي الذي تخرج منه في اسطنبول. قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، أسس ساطع الحُصري مدرسة خاصة في عاصمة الدولة العثمانية، سماها «المدرسة الحديثة» وأطلق مجلّة علمية فصلية بعنوان «أنوار العلوم.» وخلال الحرب العظمى، كان مديراً لدار المعلمين في اسطنبول، متحالفاً مع جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد الثاني عام 1909. كانت نزعته تركية بحتة وقد نشر عدة مقالات في الدعوة إلى التتريك في مجلة «تورك أوجاني» بتوقيع شبه مستعار: م ساطع، أو مصطفى ساطع.

(1) ساطع الحصري: في مذكّرات منظّر الفكر القومي العربي، رأي اليوم اللندنية، 19 مايو/ أيار 2022. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

الحصري حليفاً للأمير فيصل بن الحسين:

حصل فراق عقائدي بينه وبين الاتحاديين بعد إعدام جمال باشا مجموعة من أعيان المدن السورية يوم 6 أيار/ مايو 1916، بتهمة الخيانة العظمى والعمالة لصالح الحكومة الفرنسية. ومع ذلك لم ينفصل عن الدولة العثمانية، ولكنه تعاطف كثيراً مع الثورة العربية الكبرى التي انطلقت من الصحراء العربية مطلع صيف عام 1916، بقيادة الشريف حسين بن علي وبدعم عسكري من الحكومة البريطانية. في تشرين الأول/ أكتوبر 1918، شدّ ساطع الحُصري الرحال متجهاً إلى دمشق للمشاركة في أول حكومة عربية أقيمت فيها بعد خروج الجيش العثماني، تحت راية الشريف حسين وبقيادة نجله الأمير فيصل بن الحسين. بايع الحُصري الأمير فيصل حاكماً عربياً على البلاد، وتوطدت صداقة مميزة بينهما، استمرت حتى وفاة فيصل عام 1933.

أول وزير للمعارف في سورية:

نظراً لباعه الطويل في التدريس، عينه الأمير فيصل مديراً للمعارف في سورية، مُكلفاً بتعريب المناهج التربوية كافة في المراحل الابتدائية والثانوية والجامعية. في عهده، أعيد افتتاح معهدي الطب والحقوق في دمشق، بعد إغلاق قسري دام شهوراً بسبب ظروف الحرب العالمية وأشرف الحُصري على إعادة هيكلة المدارس السورية، وعلى تعيين نخبة من المُدرسين الكبار. كما أدخل أول سيدة على القطاع الحكومي في سورية، وهي الأديبة لبيبة هاشم، التي عُيّنت وبأمر مباشر منه مفتشة في مديرية المعارف. وفي 9 آذار/ مارس 1920، عُين ساطع الحُصري أول وزير للمعارف في حكومة الفريق رضا باشا الركابي، وكان ذلك بعد يوم واحد فقط من تتويج الأمير فيصل ملكاً على البلاد. وبعد استقالة حكومة الركابي في 3 أيار/ مايو 1920، أُعيد تكليف الحُصري بحقيبة المعارف في حكومة الرئيس هاشم الأتاسي. كان صديقاً للأتاسي وتشارك معه في ثمن إيجار بيت مُشترك في منطقة الروضة بدمشق، ضبطاً للنفقات.

المفاوضات مع الجنرال هنري غورو:

في 14 تموز/ يوليو 1920، وصل إنذار فرنسي إلى القصر الملكي بدمشق، حمل توقيع الجنرال هنري غورو، مندوب فرنسا في سورية ولبنان. جاء هذا الإنذار رداً على قرار تتويج الملك فيصل دون التشاور مع حكومة فرنسا أو أخذ موافقتها، بما اعتُبر مخالفاً لاتفاقية سايكس بيكو الموقّعة في زمن الحرب بين حكومتي باريس ولندن. طالبت فرنسا بحل الجيش السوري وبتسليم سكة رياق حلب ومصادرة السلاح من الأهالي، تمهيداً لتطبيق نظام الانتداب في سورية. أرسل الملك فيصل وزير المعارف إلى بلدة عاليه اللبنانية للتفاوض مع الجنرال الفرنسي، آملاً أن ينجح في تأجيل الانتداب أو بتعديل بعض شروطه. ولكن ساطع الحُصري عاد إلى دمشق خالي الوفاض، وبدأت التحضيرات لمواجهة عسكرية مع الجيش الفرنسي، حصلت في خان ميسلون على طريق دمشق – بيروت يوم 24 تموز/ يوليو 1920 وأدت إلى هزيمة الجيش السوري ومقتل وزير الدفاع يوسف العظمة وخلع الملك فيصل الأول عن عرش سورية.

الخروج من سورية:

قبل سقوط دمشق بيد الفرنسيين، توجه فيصل إلى قرية الكسوة وبعدها إلى مدينة حيفا الفلسطينية ومن ثم إلى أوروبا عبر البحر، قاصداً سويسرا للمثول أمام عصبة الأمم للاحتجاج رسمياً على معاملة فرنسا له. لم يخرج مع فيصل من دمشق إلا قلة قليلة من أعوانه، مثل مستشاره السّياسي نوري باشا السعيد ومرافقه العسكري تحسين قدري وأمين سره إحسان الجابري وشقيقه الأمير زيد بن الحسين، إضافة طبعاً للوزير ساطع الحُصري. في كتابه عن تلك المرحلة «يوم ميسلون،» يقول الحُصري: «كثيراً ما كان الملك فيصل يستعرض حوادث الماضي بنظرة انتقادية ويقلّب وجوه الخطأ والصواب فيها ويظهر ندمه على بعض الوقائع والمواقف ويُصرح

بامتعاضه عن أعمال البعض وكان يوجه اللوم إلي مباشرة من حين إلى حين. ولكنه كان يفكر أكثر من ذلك كله، في المستقبل ويتكلم عن الخطط التي يجب السير عليها لتلافي ما فات.» بعد وصولهم إيطاليا، أرسل فيصل ساطع الحُصري إلى تركيا، نظراً لإتقانه اللغة التركية وعلاقاته المتينة مع زعمائها، في محاولة للحصول على دعم عسكري من كمال أتاتورك لمواجهة فرنسا في سورية.

مع فيصل في العراق:

نجحت مساعي الملك فيصل في أوروبا وتم تعويضه عن عرش الشام بعرش العراق، الذي توّج ملكاً عليه يوم 23 أب/ أغسطس 1923. ظلّ ساطع الحُصري إلى جانبه وكُلف بعدة مهام تربوية، منها وضع المنهاج الحكومي لكل مدارس العراق وإدارة مديرية الآثار وتأسيس كلية الحقوق في جامعة بغداد، التي عمل الحُصري عميداً لها طوال عشر سنوات. ومن مآثر ساطع الحُصري في بغداد أنه رفض مقترح الملك فيصل بإيجاد مدارس خاصة لكل طائفة في العراق، مصرّاً على منهاج قومي واحد، عابر لكل الأديان والطوائف والعرقيات.

دوره التربوي في العراق:

كما تولى ساطع الحُصري إدارة دار المعلمين العالية في بغداد، وكان ليبرالياً تقدمياً حاول فصل درس الدين عن دروس اللغة العربية التي كانت في السابق مشتركة في منهج واحد. وعمل على استحداث مناهج عِلمية معاصرة في اللغة العربية، وكان أشهرها كتابه القراءة الخلدونية للصف الأول الابتدائي، وهو كتاب خاص بتعلم اللغة العربية، لا إشارة فيه إلى النصوص الدينية التي أفرد لها الحُصري كتابا خاصا سمي بالتربية الدينية. وفي سنة 1923 احتج المعلمون في بغداد على سلوك الحُصري وقدموا مذكرة للملك فيصل الأول، ثم نشروا كراساً بعنوان «سر تأخر المعارف»، فيه اتهامات مباشرة

للمربي السوري ولكن الملك كان يلزم وزارة المعارف بأوامر ساطع الحُصري ولم يهتم بآرائهم. ثم اشتدت الخصومة بين الحُصري والكاتب والشاعر العراقي فهمي المدرس عندما وقف الحُصري ضد تأسيس جامعة دينية في العراق، مشدداً على ضرورة فصل الدين عن التعليم العالي. عارضه في ذلك فهمي المدرس وكتب عدة مقالات حول مسألة التعليم العالي فيها انتقاد لاذع لساطع الحُصري. ومع ذلك، بقي الحُصري مسؤولاً عن التعليم في العراق وعن تطوير مناهج المدارس، وظل يدعو إلى فكرة القومية العربية إلى أن قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، حيث تم إبعاده عن العراق من بعدها، بأمر من السلطات البريطانية الحاكمة يومها. أحب ساطع الحُصري الملك فيصل كثيراً وخدمه بتفانٍ وإخلاص، كما خدم ابنه الملك غازي وحفيده الملك فيصل الثاني، وعند وفاة الملك المؤسس في إحدى مستشفيات سويسرا في أيلول 1933، أطلق عليه الحُصري لقب «فيصل العظيم».

العودة إلى سورية:

في عام 1943، جرت انتخابات نيابية في سورية، أوصلت رجالات الكتلة الوطنية إلى الحكم، وجميعهم كانوا أصدقاء ساطع الحُصري منذ أن كان وزيراً في عهد الملك فيصل بدمشق. طَلب منه رئيس الحكومة سعد الله الجابري العودة إلى سورية للعمل على إعادة هيكلة المناهج التربوية، وذلك بصفة مستشار لوزارة المعارف. قبل ساطع الحُصري العرض، وعاد إلى موطنه واُستقبل استقبالاً حافلاً في القصر الجمهوري من قبل الرئيس شكري القوتلي، الذي قلّده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة. اقترح الحُصري على حكام سورية أن يتم إلغاء مادة اللغة الفرنسية من الصفين الرابع والخامس في كافة المدارس الحكومية والخاصة، بهدف نزع الهيمنة الفرنسية عن نظام التعليم، وأن يتم تدريسها من الصف

السادس فقط. كما طالب بإلغاء نظام البكالوريا الفرنسية، بشقيها الأدبي والعلمي، واستبدالها بالنظام التربوي البريطاني المتبع بالعراق. عارض عدد من الوزراء مقترح ساطع الحُصري، وكان على رأسهم خالد العظم، الذي اتهم الحُصري بأنه يريد الانتقام من فرنسا التي أقصته عن سورية قبل عقدين من الزمن. جمعت مقترحاته في كتاب نشرته وزارة المعارف السورية عام 1944 حمل عنوان «تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات إصلاحها».

المرحلة المصرية:

من سورية توجه ساطع الحُصري إلى مصر وعمل مُدرساً في المعهد العالي للمعلمين، ثم عميداً لمعهد الدراسات العربية العليا، بتكليف خاص من الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يحترمه كثيراً. وفي مرحلة الخمسينيات كان الحُصري مستشاراً ثقافياً لجامعة الدول العربية التي كان يُصر على تسميتها «جامعة للدول العربية» لا «جامعة عربية،» باعتبار أن الأخيرة كانت ما تزال بمثابة «المثل الأعلى الذي تصبو إليه النفوس المدركةُ معنى العروبة».

عمل الحُصري جاهداً في الدفاع عن القومية العربية وفي مواجهة دعاة الفكر الإقليمي في مصر، حيث أرجع تجاهل مصر الاستجابة لقضية القومية العربية قبل ثورة الضباط الأحرار إلى عاملين، الأول هو حالة العزلة التي أحدثها الاحتلال البريطاني والآخر هو ارتباط بعض النخب المصرية بروابط وولاءات تتنافى مع الروح القومية (وهذه إشارة إلى الأصول الألبانية لسلالة محمد علي باشا وآخر ملوكها، الملك فاروق الأول).

محاربة الهوية الفرعونية لمصر:

اهتم الحُصري بالرد على محاولات بعض المفكرين المصريين صياغة هوية ثقافية مصرية خاصة تستند إلى التراث الفرعوني، حيث اعترض على كتاب الدكتور طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» الذي جاء فيه أن ثقافة مصر كانت فرعونية الجوهر. استنكر الحُصري فكرة فرعونية مصر بشدة معللاً ذلك بأنه إذا كانت المشاعر الفرعونية تتأصل في وجدان المصريين فإنه يجب معه أن تستعيد لغة الفراعنة وحضارتهم، وأن مصر لا يمكن أن تنبذ العروبة الحية تحت دعوى الانتماء إلى حضارة ميتة. أما فيما يتعلق بدعوى الانتماء لإنجلترا فقد دحض تلك الدعوى بتأكيده على أن ما يشد ويربط مصر بدول عربية أقوى مما يربطها بدول البحر الأبيض المتوسط. كتب الحُصري سلسلة من المقالات جاء فيها أن اللغة الفرعونية هي ذاتها السريانية وهي من اللغات السامية الشقيقة والقريبة جداً من اللغة العربية، وأن القبطيين هم أبناء طائفة دينية وليسوا أبناء قومية منفصلة بذاتها. واستند في كتاباته على مكونات اللغة القبطية التي تتكون من 33 حرفاً، 27 حرفاً منها يوناني مقتبس من اللغة الاغريقية القديمة بعد هيمنة الامبراطورية الرومانية على مصر في عهد الملكة كليوباترا.

موقفه من فكر أنطون سعادة:

واجه ساطع الحُصري فكر الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه أنطون سعادة الذي كان ينفي وجود رابط قومي بين سورية وغيرها من الأقطار العربية. رفض الحُصري الرباط الجغرافي فقط كأساس للقومية، كما رفض أيضاً التسليم بوجود سِمات وميزات للسوريين، سكان الهلال الخصيب، تختلف عن تلك التي تتسم بها الشعوب الأخرى الناطقة بالعربية. بل إنه كان ينفي تماماً وجود ما يعرف بالإقليم السوري، أو سورية الكبرى، بمعناه الإداري الحديث. وكان الحُصَري يقدِّم وحدة اللغة

على سائر عوامل الرابطة القومية ويرى أنّ الثقافة القائمة على اللغة تؤكد تشابه التكوين النفسي ويعتبره أساس الأمة. فيقول لطه حسين: «اضمنوا لي وحدة الثقافة وأنا أضمن لكم كلّ ما بقي من ضروب الوحدة». وفرّق بين الثقافة التي اعتبرها قومية وبين الحضارة التي اعتبرها أمميّة. وتكلّم عمّا يدعى ويسمى «العبودية الثقافية» و«السيطرة الثقافية» التي تمارسها بلدان الغرب وكان يراها تشكل خطراً على الثقافة القومية والوجود القومي العربي. وحذّر من مخلّفات السيطرة الاستعمارية الغربية التي تروّج للتيارات والنزعات الإقليمية، وبالمقابل كان يؤكد شعبية الثقافة ويعدها الأساس في تكوين نفوس الشعب ولا يقصد بذلك التقليد بل البعث والنهوض. وهذا ما دعاه إلى رسم سياسة لغوية صحيحة في معركة النضال من أجل الوحدة العربية، فأبرز أهمية إصلاح اللغة والتعمّق في معرفة الفصحى في مدارس البلدان العربية.

دافع عن قومية الأدب أمام المنادين بإقليمية الأدب فخاطب عميد كلية دار العلوم المصرية أحمد ضيف قائلاً: «إنّ الأدب العربي لم يكن أدباً واحداً. وإنما هو مجموعة آداب، نشأت في بيئات مختلفة.» وقد استشهد بالمتنبي الذي ولد في الكوفة ونشأ في البادية وعاش في بغداد وحلب وسافر إلى القاهرة، ومع ذلك حافظ على أصالته وصفته الموحّدة. فيرى الحُصري أن «التنوّع والأصالة شيء وإقليمية الأدب شيء آخر، فلا يوجد أدب مصري وأدب عراقي أو شامي أو تونسيٌّ ... وإنما يوجد أدباء مصريون، عراقيون، شاميون، وكلّهم يسعون لتطوير الأدب وإبراز أصالته.»

تأثير الحصري في العالم العربي:

سجّل ساطع الحصري، المنظّر القومي كما عرفه العالم العربي، والتربوي البارع كما يعرفه الأتراك العثمانيون، قصة حياته في عدة كتب كان منها «مذكراتي في العراق» و«يوم ميسلون». وأثّر الحصري في أوساط المثقفين

العرب كمرب وصاحب عقيدة ومحاضر وكاتب غزير الإنتاج ومؤتمن على سر الملك فيصل. واستمر الحصري في مناصرة قضية القومية العربية قرابة النصف قرن. ولم تفتر – رغم تقلب الأحداث - حماسته لهذه القضية.

«انفصلت سوريا عنا»:

عام 1919، فاجأت صحيفة «وقت» الإسطنبولية قرّاءها بعبارة «لقد انفصلت سوريا عنا»، ولم يكن ذلك عند انسحاب القوات العثمانية من سوريا، بل بعدها بقرابة عام كامل. وجاء ذلك مع قرار ساطع الحصري، أشهر مفكر سوري عثماني، الرحيل عن مدينة إسطنبول التركية إلى دمشق عام 1919؛ فضجّت الصحف تناشده أن يبقى بينهم لأنه يمثل بالنسبة إليهم رأس مال الدولة العثمانية الأصيل.

عدم جدوى الإصلاح التربوي في غياب الإصلاح السياسي.

إن «الإصلاح لدى الحصري يتعلق بتحديث بنى الدولة، ولا سيما التعليم، لأنه كان في الأساس رجل تربية وتعليم ومارس هذه المهنة في كثير من مناطق الدولة العثمانية.

مسافة واحدة من الجمعيات:

شارك الحصري في حركة تموز/ يوليو عام 1908، والتي أدّت لاحقًا إلى الإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني. لكنه نفر من أجواء المراوغات السياسية، ورفض تسلم أي من المناصب الإدارية التي عرضها عليه القائد العسكري الأبرز في حركة تموز محمود شوكت باشا.

طوى الحصري صفحة البلقان وانتقل إلى إسطنبول ليتسلم إدارة دار المعلمين، ويؤسس مجلة أنوار العلوم، مستئنفًا نشاطه الإصلاحي التربوي الذي أسبغ

عليه لقب «أبي التربية التركية». ورغم صداقته مع عدد من القوميين العرب على غرار عبد الكريم الخليل، أمين سر المؤتمر العربي الأول في باريس، إلا أن الحصري حافظ على مسافة واحدة من الجمعيات السياسية العربية الناشئة آنذاك في إسطنبول. وكان العالم العربي، وبالتحديد بلاد الشام والعراق، قد شهدت قبيل الحرب العالمية الأولى ظهور الكثير من الجمعيات السياسية والأدبية والإصلاحية. ويشرح أن الفكر القومي العربي آنذاك كان في مراحله البدائية، وكان هناك شيء من ردة الفعل تجاه الدعوات الطورانية، أي التتريك، فكان السؤال: لم التتريك، كلنا عثمانيون؟. وبقي الحصري مخلصًا للوطنية العثمانية من خلال جهوده التربوية والتعليمية، رافضًا الدعوات القومية إلى تفكيكها. لكنه ما لبث أن ألف نفسه عثمانيًا بلا وطن، فالحرب العالمية الأولى وضعت أوزارها والدولة العثمانية لم يعد لها حضور على خارطة السياسة الدولية، فغادر إسطنبول قاصدًا سوريا منتصف عام 1919 ليبدأ السعي إلى بناء أمة جديدة وفق أسس جديدة.

هكذا تحوّل ساطع بيك العثماني إلى ساطع الحصري القومي العربي، واعتبر أن انهيار الدولة العثمانية كان حتمية تاريخية لا يجوز اتهام الثورة العربية بالتسبّب بها. سأل الحصري في مذكراته: «هل كان يمكن أن يتغيّر اتجاه الحرب من جرّاء نشوب الثورة في الحجاز، أو عدم نشوبها؟». وأردف بأن «انكسار الألمان واستسلامهم كان من الأمور المحتمة، كما أن استسلام الدولة العثمانية أيضًا كان من النتائج التي لا بد أن تلي انهيار القوى الألمانية، سواء أثار عليها الشريف حسين أم بقي مواليًا لها».

عن لقائه الأول بالأمير فيصل في دمشق، كتب ساطع إنه كان عقب عودة الأمير من مؤتمر الصلح في باريس. ويلفت إلى أن العلاقة التي بدأت بينهما كان مقدرًا لها أن تستمر وتتوطد دون انقطاع، مدة تزيد على 14 عامًا. ويُلاحظ أن صورة الحصري كرجل عمل سياسي كانت قد

ارتبطت بفترة الحكومة العربية، وتحديدًا في مجرى الصراع بين السوريين والفرنسيين.

عام 1920، وبينما كان ساطع الحصري يخوض صراعًا مع الحاكم العسكري العام في المملكة العربية الناشئة في سوريا، حول آليات العمل ومناهج التربية والتعليم، كانت الجيوش الفرنسية تستعد لاحتلال سوريا تنفيذًا لاتفاقية سايكس – بيكو. حينها، وجه الجنرال غورو إنذارًا إلى حكومة فيصل يأمرها بحل الجيش العربي واعتماد النقد الفرنسي وتسليم السكك الحديدية إلى السلطة الفرنسية. اضطر فيصل الذي وجد نفسه وحيدًا في مواجهة فرنسا، إلى القبول بشروط غورو، فأرسل إليه برقية يعلمه فيها بحل الجيش العربي. ورغم ذلك بدأ زحف القوات الفرنسية نحو دمشق. ويشير باروت إلى أن الجنرال غورو ادّعى أن البرقية لم تصله، فأمر الجيش بالتقدم. وإزاء ذلك أوفد الملك فيصل الحصري شخصيًا، الذي طلب في طريقه هدنة من أجل تدارك الأمر. ويكشف أن الحصري شعر -مع تشديد غورو لشروط إنذاره وإضافة شروط أخرى– بأنه مصمم على احتلال دمشق، فعاد إليها ونصح الحكومة بأن توقف عمليات تسريح الجيش وتحافظ على ما تبقى منه وأن تدافع قدر الإمكان.

الحفاظ على الشرف العسكري :

صباح 24 تموز/ يوليو 1920، قاد وزير الحربية السوري يوسف العظمة ما تبقى من الجيش العربي الذي تم حله، ضد القوات الفرنسية المهاجمة، في معركة للحفاظ على الشرف العسكري. وكتب الحصري في هذا الشأن: «ما كنت أجد مجالًا للشك في النتيجة الأليمة التي ستنتهي إليها المعركة، ومع ذلك كنت أتمنى أن تطول على قدر الإمكان، وأمنّي نفسي بمعركة عنيفة تساعد على حفظ شرفنا العسكري على أقل تقدير». أردف: «وانكسر الجيش، واخترقت الجبهة، وقالوا يوسف العظمة قتل في ميسلون. قلت بل

إنه انتحر هناك واستشهد على كل حال». إلى ذلك، يشير باروت إلى أن الحصري ظل يمارس دورًا سياسيًا، حيث سافر مع الملك فيصل إلى روما من أجل طرح القضية السورية في الهيئات الدولية في أوروبا.

كتب الحصري أن فيصل ألقى عليه مهمة جديدة، وهي «السفر إلى إسطنبول للاتصال بالكماليين من أتباع مصطفى كمال، ومعرفة مدى المساعدات التي يمكن أن نأمل بها منهم في كفاحنا ضد الفرنسيين». وفي هذا الشأن، كشف باروت أن ساطع الحصري أقام في إسطنبول، ووصل من طريق زملائه القدامى في جمعية الاتحاد والترقي، وجاءته رسالة المجلس الوطني الكبير بالموافقة على هذا التحالف، على أن تكون الأولوية هي العمل في سوريا.

ساطع الحصري في العراق:

رغم تخلي فيصل عن مسار المقاومة في سوريا وضياع جهود الحصري في حشد مساندة الكماليين له هناك، إلا أن الحصري استمر في مساعدة فيصل والإيمان بمشروع الدولة العربية تحت قيادته. وما عده فاتحة الخدمات التي قدمها إلى العراق وإلى القضية العراقية بصورة مباشرة، أوجزه في التالي عبر مذكراته: «علمت خلال اتصالاتي ببعض رجال وزارة الخارجية الإيطالية أن الحكومة البريطانية أعدّت مشروعًا يتضمن صك الانتداب على العراق، ومشروعًا آخر يتضمن صك الانتداب على فلسطين». ولفت إلى أن نسخة من كلا المشروعين أرسلت بصورة سرية إلى الخارجية الإيطالية قبل عرضهما على عصبة الأمم. وأوضح أنه توسل بشتى الوسائل للحصول على تلك المعلومات السرية، وحصل على الوثيقة، وساعدته زوجته أم خلدون في نسخها، وضحت بنومها في تلك الليلة.

بوصول ساطع الحصري إلى بغداد، انطلق على ضفاف دجلة في مشروع جديد ساعيًا إلى تحقيق آماله في الوحدة العربية من خلال توجيه التعليم

توجيهًا وطنيًا ورفع مستوى دار المعلمين العليا. وأنشأ مجلة التربية والتعليم معتمدًا القومية العربية أساسًا للمناهج الدراسية. واعتنى بمناهج التاريخ، الذي يعدّه عنصرًا مهمًا في بناء الهوية العربية كهوية سياسية للأجيال الجديدة. واعتمدت وزارة المعارف العراقية كتاب الفلسطيني درويش المقدادي «تاريخ الأمة العربية» للتدريس في المدارس الثانوية. ويوضح باروت أن صورة الحصري كصاحب دور سياسي مؤثر توارت مع التحاقه بالملك فيصل في العراق، وتوليه عملية تصميم مقررات ومناهج وزارة المعارف العراقية. لكن بأي واقع اصطدم ساطع الحصري في العراق أثناء صياغة السياسات التعليمية، وأي أثر تركه رحيل الملك فيصل عليه، ولم عاد إلى مدينة حلب، ثم انتقل إلى القاهرة؟.

ساطع الحُصري وعدداً كبيراً من المؤلفات :

- أبو خلدون ساطع الحصري (1923)، طريقة تعليم الألفباء: مرشد القراءة الخلدونية.
- أبو خلدون ساطع الحصري (1939)، الإحصاء.
- أبو خلدون ساطع الحصري (1945)، يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث.
- أبو خلدون ساطع الحصري (1948)، صفحات من الماضي القريب.
- ساطع الحصري (1952)، العروبة بين دعاتها ومعارضيها.
- أبو خلدون ساطع الحصري (1955)، العروبة أولاً!.

التكريم بعد الوفاة:

في مطلع السبعينيات كرّمت جامعة الدول العربية ساطع الحُصري وخصّصت أسبوعاً لدراسة فكرهِ ورؤيته. وتقديراً لدوره القومي والتربوي وفي سورية،

سُـميت إحـدى أشـهر مـدارس البنـات في حـي المالكـي بدمشـق علـى اسـمه وتبعتهـا مدرسـة ثانيـة في مدينـة الرقـة وثالثـة في ديـر الـزور.

بعض أقوال ساطع الحصري:

- إنّ الدعوات الإقليمية الانعزالية تعوق رصّ الدول العربية في جبهة موحّدة معادية للإمبريالية.
- إنّـي أعتقـد أنّ أوّلَ مـا يجـب عملـه لتحقيـق الوحـدة العربيـة في الأحـوال الحاضـرة، وهـو إيقـاظ الشـعور بالقوميـة، وبـثّ الإيمـان بوحـدة هـذه الأمـة.
- إنّنـا ثُرْنـا علـى الإنجليـز، ثُرْنـا علـى الفرنسـيين، ثرنـا علـى الذيـن اسـتولوا علـى بلادنـا، وحاولـوا اسـتعبادنا.. وقاسـينا في هـذا السـبيل ألوانـاً مـن العـذاب، وتكبّدْنـا أنواعـاً مـن الخسـائر، وضَحّيْنـا كثيـراً مـن الأرواح .. ولكن عندمـا تحرّرْنـا مـن نيـر هـؤلاء أخذنـا نسـتقدس الحـدود التـي أقاموهـا في بلادنـا بعـد أن قطعـوا أوصالهـا.
- إنّ الـدول العربيـة القائمـة الآن لـم تتكـوّن، ولـم تتعـدّد بمشـيئتها ومشـيئة أهلهـا، ولا بمقتضيـات طبيعتهـا، إنّمـا تكوّنَـتْ وتعـدّدت مـن جـراء الاتفاقـات والمعاهـدات المعقـودة بـين الـدول التـي تقاسـمت البـلاد العربيـة وسـيطرت عليهـا.
- يخطـئ مـن يظـنُّ بـأنّ قضايـا الوحـدة العربيـة يمكـنُ أنْ تـدرّس وتعالـج بأعمـال حسـابية، ولْنعلَـم العلـم اليقـين بـأنّ الاتحـاد يولّـد قـوّة ليـس عـن طريـق جمـع القـوى فحسَـب بـل عـن طريـق إيجـاد حيـاة جديـدة، وأوضـاع جديـدة تولّـدَ قـوى جديـدة، تفـوق مجمـوع القـوى المتفرّقـة بـآلاف الدرجـات.
- إن التفكيـر في بعـض الأمـورِ مسـتقلاً عـن الديـن لا يعنـي إنـكار الديـن، إنّمـا يعنـي اعتبـار تلـك الأمـور ممـا لا يدخـل في نطـاق الأمـور الدينيـة وذلـك

لا يحول دون الرجوع إلى الدين في سائر الميادين. ولذلك كلّه قلت ولا أزال أقول إنّ نَعْتَ القَومية باللادينية والقوميين باللادينيين لا يتفق مع حقائق الأمور.

- كيف يمكن لأحد أن يأمل بتكوين وحدة من البلاد الإسلامية التي تتكّلم بلغات مختلفة . دون تكوين وحدة من البلاد التي تتكلّم بلغة واحدة، ولا سيما التي تتكلم بلغة القرآن.

فـوزي القاوقجـي: كيـف تسـببت الصراعـات العربيـة في هزيمـة حـرب 1948؟ مذكّـرات القائـد العـام لجيـش الإنقـاذ[2]:

هـو فـوزي القاوقجـي تلميـذ فلسـفة اجتماعيـة. ثقافتـه الكتابيـة لا بـأس بهـا؛ فهـو مطلـع علـى الحـوادث، وهـو مطالـع الكثيـر مـن الكتـب والصحـف، ولكـن ثروتـه الثقافيـة هـي في غنـى التجـارب اكتسـبها في ميادين الصـراع، فاختزنهـا في عقلـه وقلبـه، وكمنـت في أنحـاء نفسـه، كمـا كمنـت هـذه الشـظايا التي لا تـزال مسـتقرةً في رأسـه وصدره وسـاقه. وإن عين الفنان وأذنه ترى وتسـمع، ومهمته أن ينقلهـا. إن أجمـل مـا في الأدب الصـدق، وإن الأديـب ليصبـح مجرمًـا إن هـو حـاول أن يلـون بقلمـه تاريخًـا خطَّـه جنـدي بدمـه.

«لقـد جاءنـي الكثيـرون يطلبـون منـي أن يكتبـوا سـيرتي وينشـروا حوادثـي. وبعضهـم تقـدم بعـروض ماليـة مغريـة. بعـض هـؤلاء تعمَّـدوا أن يدوِّنُوهـا قصـة، ويطمسـوا ذكـر صاحـب القصـة. فأمـا أكثرهـم فـأراد أن يسلسـلها قصـة في جريـدة. قـد يكـون هـذا أهـمَّ الأسـباب التـي حملتنـي علـى الرفـض. وقـد قلـت لآخريـن لا أريـد روايـة بوليسـية أو خياليـة. نحـن أمـام وقائـع حدثـت، مـا أعطـي ليـدٍ أن تُغيِّرهـا. وليـس الغـرض مـن نشـر كل هـذه الآراء إلا أن تصبـح دليلًـا يهـدي جنديًـا سـواي، إلـى خـزان القـوة في أمتنـا فيغـرف منـه».

هـذا المقاتـل الـذي خـدع المـوت عشـرات المـرات —أو مئـات— واسـتبدل دمـه مـرات، وهـزم، وانهـزم، هـو موقـن مؤمـن أن البطولـة هـي بعـض الدم الذي يجـري في عـروق أبنـاء أمتـه. وإن النبـل والتضحيـة والمـروءة تغلِّـف نفوسـهم، وإنهـم في كل هـذا يفوقـون أمـم الدنيـا قاطبـةً. لقـد غامـر بروحـه وأرواح ألـوف مـن مواطنيـه على أسـاس هـذا الإيمـان، وهـذا الإيمـان بأبنـاء أمتـه ترسَّـخ وتجـاوب بينـه وبينهـم؛ فهـو الثائـر الوحيـد الـذي انضـمَّ إلـى ثوراتـه مـرةً بعـد مـرة مجاهـدون مـن كل

(2) فـوزي القاوقجـي.. كيـف تسـببت الصراعـات العربيـة في هزيمـة حـرب 1948؟ مذكّـرات القائـد العـام لجيـش الإنقـاذ، رأي اليـوم اللندنيـة، كانـون الأول/ ديسـمبر 2022. كذلـك الموسـوعة الجزائريـة للدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية.

طوائف الأمة ومناطقها وطبقاتها، وإن هؤلاء ما خاطروا بأرواحهم إلا بعد أن جاءت التجارب تُثبِت أن قائدهم يستحقُّ هذه الثقة. تعرفت إلى كل هذا من الرسائل الكثيرة التي في حقائبه، ومن قصاصات صحف تعد بالمئات، ومن صور بهتت على كر السنين كما امَّحت من المخيلات ذكرى تضحياتها، ومن جداول بأسماء من انتدبوا نفوسهم للجهاد والبطولة.

لقد أعلنت الحرب العالمية الأولى وأبناء أمتنا يتهرَّبون من الخدمة العسكرية في الجيش العثماني، فصار لهم صيت أنهم جبناء، ولسبب ما —لعله عمق التفكير— خطر في بال القائد الألماني «هتلر»؛ فهيَّأ ثلاثة أفواج من الفلسطينيين في جبهة بئر سبع، وكانت الجيوش البريطانية قد اقتحمت جنوب بلادنا، وحاصرت الجيش التركي في غزة، فما كان من الأفواج الفلسطينية الثلاثة - وضباطها ألمان - إلا أن اقتحمت غزة ومزقت عنها الحصار.

في الحرب العالمية الأولى، وصل إلى القفقاز الفيلق الثاني عشر من العراق، وقد جاء العراقيون بملابسهم الصيفية، وحاربوا الروس بين ثلوج القفقاز والقرص وأردهان، وأنقذوا الجيش التركي من كارثة هزيمة. أقتصر على هذين المثلين اللذين سمعتهما من صاحب هذه السيرة، فالمذكرات نفسها تكشف عن نفسية الصراع والبطولة الكامنة في شعبنا. ولقد ذكر القائد الألماني «فون كريس» في معرض المفاضلة بيننا وبين الأتراك أن شجاعة جنودنا لم يُشهَد أروع منها، وجندينا يمتاز بالذكاء حتى لكأنه يقرأ أفكار القائد من غير أن يستمع لأوامره. أما التركي فهو صلب عنيد يصعب زحزحته من مكانه، ولكنه إن غادر متراسه سيطرت عليه الفوضى، واختلط عليه الأمر؛ إذ إنه يعوزه الذكاء الذي يزخر في عقول مواطنينا.

البدوي رجل كسب وغنائم، لا يفهم القومية. إنه نفعي يريد أن يستغلَّ من غير أن يغامر، وهو لا يؤمن بأحد ولا يتعرف إليك، ولا يعترف بقوتك حتى يراك ويلمسك، ولا يحالف إلا حين يتحقق أو يتوقَّع النصر لك، ولا يقاتل إلا

حين يصبح في مأزق، فيمسي حينئذ شرسًا بطاشًا شجاعًا كهرَّة برية مطوقة. والبدوي على أروعه حين يحارب من أجل غنيمة، وشجاعته متأرجحة.

لا ريب أن معاشرته الطويلة للبدو قد أغنت ثروته اللفظية، وأطلقت لسانه بالبليغ وبالفصيح، حين عاش في مكة كان له عبد سمين منقش الوجه بالجدري، وكانت زوجة فوزي البدوية تتطيَّر من رؤيته، وقد زعقت ذات يوم «هالوجيه» (هذا الوجه الصغير) اللي شنه (الذي كأنه) روث منقرة (نقره) غراب.

من اختباراته مع البدو أنه استبقى أحدهم معه في بغداد، واسمه «تويني»، أخو فايز المثقال شيخ بني صخر، وقد برم هذا بعيشة الحضر في بغداد فشكا أمره إلى القاوقجي، فسأله هذا ما يبغي؟ أجاب: «قطيعًا أرعاه.» فاشترى له تسعة رءوس غنم، وراح التويني يرفه عن نفسه ويشغلها برعي هذا القطيع في جوار بغداد. ويومًا دعا المضيف ضيفه لحضور حفلة سينما في بغداد، وكان الفيلم مزدوجًا «ميكي موس» والصورة الشهيرة «لا جديد في الجبهة الغربية»، فلما انصرفوا من قاعة العرض سألوا التويني رأيه في الذي رأى، فأجاب أنه لم يفهم من «ميكي موس» شيئًا، وما رأيك في «لا جديد في الجبهة الغربية»؟.

حرب 1948 في مذكرات القاوقجي:

في معارك سنة ١٩٤٨ كانت آليات «جيش الإنقاذ» بغالًا حين دخلنا فلسطين، وانتهى الأمر إلى يوم اغتصبنا من آليات العدو الكثير بينها ٤٢ دبابة، ثم إني أحسب في حروبنا المقبلة سيكون غزاة بلادنا أبدًا متفوقين علينا بالمعدات، وليس لنا إلا أن نبحث عما في أمتنا من بطولة أصيلة.

إن أولى مغامراته أثارها حافز تودد إلى امرأة أراد أن يغزو قلبها بشجاعته، ترى أتسكن قلب هذا الرجل جنية ترغمه أبدًا إلى الغمار من أجل

إرضائها؟! إذن فهل كانت ثوراته والدماء التي أريقت نزوات فروسية لا معنى لها ولا مبرر؟.

كان إذ ذاك في حماة، ضابطًا في الجيش الفرنسي والشعب في ركدته، ومظاهر الخضوع في طبقاته، حتى إن بعض رجال الدين كانوا يأتون إلى الفرنسيين، ويفسرون لهم القرآن الكريم على أنه نبوة بظهور الفرنسيين منقذين للإسلام. أدار القاوقجي نظره فإذا بتركيا دولة تتقاوى وعلى رأسها جندي اسمه مصطفى كمال تصدى لقتال دولة ببقايا جيش مهزوم، فثار لفراع جيوش لم يعد جنودها. من هي تركيا؟ إنها أمة، أين هي من أمتنا؟! والجندي التركي أين هو من جندينا؟ ومصطفى كمال زملاؤه الأتراك تخرَّجوا من المدرسة التي تخرجت وبعض مواطنيَّ منها، وحاربوا في صفوف الجيش، وحاربنا نحن فيه. أنا الذي أنقذته، ولم يكن هو الذي أنقذني، كيف تصبح تركيا دولة ذات شأن فتطرد العدو من أراضيها، وتتصدَّر المجالس في المؤتمرات، وتكنس بضربة واحدة عناكب الرجعية، ونحن هنا في بلادنا مستعبدون، أهمنا شأنًا أكثرنا طواعيةً للمستعمر؟ أحقًّا أنني أفهم أبناء قومي وتاريخ أمتي؟ أنا مخطئ ولا شك، روح الصراع تلاشت فيهم. كانوا في الزمن البعيد أبطالًا، وجاءت حقبة فتحت فجوةً بينهم وبين النضال، فانظر إلينا! عبيد تكدح من أجل العيش لا إباء ولا طموح ولا جرأة. التاريخ علاك، شهور مرت عليه والحزن والريبة واليأس ملء قلبه، وجاءت أنباء ثورة في جبال العلويين، ثورة في جبل الزاوية، وفي دير الزور، ثورة في جبل الدروز، إذن فالحياة هي أبدًا تنبض في بني قومي وتفور.

كانت آخر معاركه معركة فلسطين التي استحالت كارثةً؛ لذلك ما عاد من الصعب أن تقرن اسمه بكل ما رافقنا من فشل. ستكشف الأجزاء القادمة أي «جيش» هذا الجيش «جيش الإنقاذ»، هذه المجموعة من الشبان،

وأكثرهم لا يعرف القتال، ولا النظام، ولا الدربة، وبعضهم انطلق ليجاهد ولينهب، هذا الجيش الذي عُبِّئَ بطرفة عين، وسُلِّحَ بالوعود، وجُهِّزَ بالدعاء والإطراء، وقيل له انطلق وأنقذ فلسطين، وقائدك القاوقجي. هذا الجيش قهر اليهود في كل معركة إلا حين دخل مستعمرات اليهود.

هذا الجيش الذي حبس عنه العتاد يسخون اليوم على قائده بالبذاءة والتحقير والنكران؛ لأننا اليوم في خسفة خلقية، ولأننا ناقمون على كل شيء وكل شخص. وإن معارك جيش الإنقاذ ستأتي مفصلةً في الجزء الأخير من هذه المذكرات، وكنت أوثِرُ أن لا أشير إلى جيش الإنقاذ بكلمة لولا أن هذا الرجل قد لبسته تهم هو منها براء؛ إذ إنه قد حظر عليه —وهو قائد الجيش— أن يزور المعسكرات حيث كانت تدرب وحدات هذا الجيش حتى يمشي بها إلى فلسطين. وقد ثارت الخصومات، ونشأ القتال بين أفراده، فوقع القتلى، وجُرِح الكثيرون قبل أن يزحف الجيش إلى فلسطين. وخلال الجهاد ارتكب بعض الضباط والمجاهدين جرائم من نهب وعدوان حيالَ الأهلين، وكان القائد أعجز من أن يؤدب، وفي بعض المواقف حيث استطاع أن يعاقب أحجم عن فعل ذلك مخافة أن يأتي عقاب المجرم من ضابط أو جندي سببًا في إثارة فوضى تمسي أشأم على الأهلين من الجريمة التي منها يشكون.

لقد بدأت الشائعات تهدم من صيت هذا الجندي منذ الساعة التي بدأت فيها أنباء بطولاته تملأ صحف الدنيا في الشرق وفي الغرب؛ إذ إنه بأعماله كسف أسماء فلسطينية كانت تحسب أن الله أقطعها هذا الجزء من بلادنا، فعزَّ عليها أن يأتي هذا «الغريب» فيقضي بالدم والحديد والجهاد على أسطورة التزعمات في فلسطين، وهو لو عمل على رد الاتهامات لما بقي لديه وقت للنضال.

«القائد فوزي القاوقجي والقتال في سبيل استقلال العرب 1914-1948»

في البدايات نقول أنه نادرًا ما يعتمد البحث الغربي على المصادر العربية في التأريخ لمراحل الصراع بين العرب والغرب، وخاصة فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي. إذ تُشكل المصادر الكولونيالية التي تقدمها الوثائق والتقارير الغربية، إضافةً إلى الأرشيف الإسرائيلي، المَعين الأول للباحثين الغربيين لاستقاء معلوماتهم ووجهات النظر المتعلقة بتاريخ منطقة الشرق الأوسط. ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب «القائد فوزي القاوقجي والقتال في سبيل استقلال العرب 1914-1948»، للكاتبة ليلي بارسونس- الذي اعتمد بشكل شبه كامل على المصادر العربية في إعادة تقديم أهم الأحداث التاريخية التي مرَّ بها الشرق الأوسط منذ نهاية الدولة العثمانية، مرورًا بالتدخلات الغربية الاستعمارية، والثورات العربية التي قامت في سبيل الاستقلال، وصولًا إلى المرحلة الحاسمة في تاريخ المنطقة، حرب 1948 وإعلان تأسيس دولة إسرائيل.

من خلال تتبع سيرة فوزي القاوقجي الحافلة، وحضوره في معظم الأحداث الكبرى في منطقة الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن العشرين، سعت الدكتورة ليلى بارسونس «أستاذة تاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر في قسم التاريخ ومعهد الدراسات الإسلامية في جامعة مكجيل، كندا» إلي تقديم عرض واضح لأهم الأحداث التاريخية التي صاغت الشرق الأوسط، والتي لا تزال آثارها فاعلة حتى أيامنا هذه.

هي حياة القاوقجي كانت أشبه بالمغامرة المستمرة، وقد يبدو تواجده المستمر في معظم اللحظات التاريخية المهمة في تاريخ الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن العشرين ضرباً من الخيال. فقد بدأ بدراسته العسكرية في استنبول، وبعدها شارك في القتال ضد الإنجليز والفرنسيين في بلاد الشام خلال فترة الحرب العالمية الأولى كضابطٍ في الجيش العثماني. ومع دخول قوات الثورة العربية إلى دمشق انضم لجيش الملك فيصل، وبعدها غدا

ضابطاً في الجيش الفرنسي، ليثور لاحقاً ضد الاستعمار الفرنسي ويساهم بشكل فاعل في معظم الثورات السورية.

نتيجة لملاحقته اضطر للهرب إلى الحجاز، حيث عمل على تنظيم جيش عبد العزيز بن سعود، وبعدها عاد إلى العراق للمساهمة في الثورة ضد البريطانيين، غير أنه أصيب وتم نقله إلى برلين للعلاج وامتدت إقامته هناك، فقد كان من المستحيل عودته خلال فترة الاستعمار، إذ كان مطلوباً لكلٍ من الفرنسيين والبريطانيين. ومع دخول السوفييت إلى برلين تم أسره وسُجنَ لعدة أشهر إلى أن تمكن من الهرب إلى باريس، والعودة بعدها إلى سوريا ليساهم في أهم حدث في تاريخ المنطقة، وفي حياة القاوقجي، والمتمثل في قيادة جيش الإنقاذ العربي في فلسطين عام 1948.

هذا العرض الموجز للمحطات الهامة في حياة القاوقجي شكَّلَ الإطار العام للكتاب، والذي قدمت المؤلفة من خلاله فرصة مهمة للقارئ الغربي غير المختص بأخذ فكرة عن الأحداث المصيرية في النصف الأول من القرن العشرين، والتي ساهمت في تشكيل منطقة الشرق الأوسط، ولا تزال تحكم إلى قدرٍ كبير الكثير من صراعاته ولا يهدف هذا العرض الموجز لاستعادة تلك الوقائع، ولا العمل على تلخيص أهم أفكار الكتاب، وإنما ستتم الإشارة إلى بعض المحطات الرئيسية في حياة القاوقجي وفي تاريخ المنطقة بشكل عام، قبل تناول منهجية هذا الكتاب ومساهمته في حقل دراسات تاريخ الشرق الأوسط.

يلقي الكتاب بدايةً الضوء على تشكل الوعي القومي العربي في بداياته من خلال حياة القاوقجي في الكلية الحربية في استنبول أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. حيث يشير إلى نمو النزعة القومية التركية بين الضباط وبروزها من خلال تحديد هويتهم كأتراك ينتسبون إلى طوران، بدلاً من الإنتماء الشامل للدولة العثمانية. هذه النزعة التركية تم مواجهتها

بحالة من الشعور بالفخر العربي من قبل الجنود العرب، والذين بدأوا ينظرون لهويتهم من منظار القومية العربية. وعلى الرغم من أن النزعة القومية العربية كانت محدودة في أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنها تعاظمت بعد سنة 1908، عندما برزت النزعة التركية بشكل كبير مع حركة تركيا الفتاة.

بعد تخرج القاوقجي من الكلية الحربية تم تعيينه في الموصل، وبدلاً من أن يسلك الطريق المعتاد عبر حلب ودير الزور، قرر أن يرحل عبر وسط الأناضول ليتعرف على المنطقة وأهلها وعاداتها. هذه الرحلة عززت من نزعته القومية العربية من خلال الاختلافات التي لاحظها عندما دخل إلى المناطق العربية، وما رافق ذلك من لقاءات بالقبائل العربية والترحيب الذي تلقاه بلسانٍ عربي، وعادات عربية.

تجدر الإشارة إلى أن رشيد رضا اقترح أن تكون الموصل هي عاصمة الخلافة الإسلامية الجديدة بعد سقوط الخلافة العثمانية. القاوقجي ورضا، وكلاهما من طرابلس، لم يكونا يجدان تناقضاً بين فكرة القومية العربية والخلافة الإسلامية، إذ كيف يمكن النظر إلى الأقطار العربية دون الأخذ بعين الاعتبار ثقافتها وعاداتها الإسلامية. وهو ما شكل اختلافاً عن مفهوم القومية العربية لدى الأقليات الدينية الأخرى في المنطقة العربية، والتي ترى الأيديولوجيا القومية بوصفها أيديوجيا علمانية حديثة تقوم على اللغة والتراث الثقافي المشترك.

بعد وصول القاوقجي إلى الموصل بعامين كانت القوات البريطانية تحتل البصرة وجنوب العراق، ما شكل بداية الحرب العالمية الأولى في فكر القاوقجي. من هنا، يعيد الكتاب تعريف القارئ الغربي على جانبٍ من الحرب العالمية الأولى من وجهة نظر عربية، وبالأخص الجنود العرب في الجيش العثماني. إذ غالباً ما كانت تُقدم وجهة النظر المرتبطة بثورة الشريف حسين المدعومة من بريطانيا في 1916، بما في ذلك مغامرات لورانس العرب وبطولاته.

قاتل القاوقجي ضمن صفوف الجيش العثماني في فلسطين وبقي في وحدته حتى أواخر الحرب، حيث عاد إلى بلدته طرابلس في أواخر عام 1918 بعد أن دخلت قوات الشريف حسين إلى دمشق. لاحقاً رحب فيصل وجيشه بالجنود العرب الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني، والتقى فيصل بالقاوقجي خلال زيارته لطرابلس ودعاه للانضمام إلى الجيش العربي في سوريا، وهذا ما شكل بداية علاقة جديدة بينهما.

لقد انضم القاوقجي إلى مكتب وزير الدفاع ياسين الهاشمي، والذي كان بدوره جندياً في الجيش العثماني وبقي مخلصاً له حتى نهاية الحرب، بل وجُرح في قتاله ضد جيش فيصل. ومن الصعب معرفة مشاعر القاوقجي تجاه الملك فيصل، فقد اعتبر الخروج على الدولة العثمانية خيانة في بداية حياته، غير أنه كتب في أوائل السبعينيات (عندما كانت القومية العربية في ذروتها، وكان ينظر إلى فيصل والثورة العربية على أنها كانت تمثل ميلاد القومية العربية.

بعد فشل مفاوضات فيصل والفرنسيين وانسحابه من دمشق ودخول الفرنسيين، انضم القاوقجي في عام 1922 للفيلق السوري، والذي كان رسمياً تحت القيادة الفرنسية، وقد تم تعيينه في حماه. وعلى الرغم من معارضة القاوقجي لتقسيم سوريا، غير أنه لم يحدد ما يقصده بوحدة سوريا.

في عام 1925 راسل القاوقجي أعيان حماة وقادة الثورات في المناطق الأخرى، وخاصة هنانو والأطرش في سبيل التخطيط لانطلاق ثورة ضد الفرنسيين في حماة. اتفق الثوار على ترك مسألة شكل الدولة السورية لبعد إزاحة فرنسا حتى لا يفتح الباب للخلاف والجدال. السياسيون المؤيدون للثورة مثل الشهبندر والريس كان لديهم تصور قائم على فكرة حكومة دستورية، وحتى خلال فترة حكم الملك فيصل القصيرة، كان البرلمان يناقش مسألة إقرار دستور للبلاد. كانت المقاومة السورية قد بدأت مع إبراهيم هنانو وصالح العلي ورمضان شلاش.

برأي الباحثة فإن هذه الثورات يجب أن تُفهم في السياق التركي أكثر مما هي في السياق القومي العربي، وخاصة أن النموذج الذي كانت تقتفيه هو حرب مصطفى كمال أتاتورك الناجحة لوقف تمدد الفرنسيين في الأناضول، وهذا ما شكل حافزاً للعديد من الحركات العربية الرافضة للوجود الفرنسي والبريطاني، وأعاد لهؤلاء الثوار الثقة بإمكانية الانتصار على الفرنسيين. مع ذلك، لم تكن ثورة أتاتورك هي المحفز الوحيد للقاوقجي، وإنما أيضاً الأخبار الواردة من المغرب والمتعلقة بثورة الريف وانتصاراتها بقيادة عبدالكريم الخطابي، وقد تكرر ذكر الخطابي ووصفه بالبطل عدة مرات في مذكرات القاوقجي.

في الثورة السورية (1925–1927) قاتل القاوقجي من أجل استقلال سوريا عن فرنسا، وشكلت هذه الثورة نقطة تحول أساسية في حياته، إذ انتقل من حياة ضابط رسمي في جيش نظامي، إلى قائد ثورة، ومن ثم منفي وملاحق في الكثير من مراحل حياته.

بعد فشل الثورة السورية تم نفيه إلى الحجاز حيث عمل على محاولة تنظيم قوات عبدالعزيز بن سعود في شكل جيش نظامي. غير أنه نتيجة شك الملك عبدالعزيز، وخوفه من تمرد قبائل الحجاز بدعم من الشريف حسين في الأردن، تم اعتقال العديد من زعماء القبائل المشكوك بولائهم، إضافة للعديد من التجار والقادة العسكرين، وكان من بين المعتقلين القاوقجي. وعلى الرغم من أن التحقيق معه في الحجاز ولاحقاً في الرياض لم يستمر طويلاً، وطلب منه لاحقاً البقاء في السعودية، إلا أنه شعر بأن حياته في خطر، وفضّل المغادرة إلى العراق حيث ظن أن علاقته السابقة بالملك فيصل في دمشق قد تساعده في تأمين مستقبله.

وصل إلى العراق في عام 1932، وبقي هناك حتى عام 1936 عندما انطلقت الثورة الفلسطينية لتبدأ مرحلة جديدة من حياته. فقد تم تعيين القاوقجي

قائداً للثورة في فلسطين وذلك للتأكيد على الترابط بين فلسطين وسوريا الكبرى، أي لإعطاء الثورة في فلسطين طابعاً قومياً عربياً، وليس محلياً فلسطينياً. فمشاركة القاوقجي مع قوات من العراق وسوريا وضعت الصراع في فلسطين ضمن إطار حرب الاستقلال ضد القوى الاستعمارية، والتي تهدف لجلاء المستعمر الغربي عن فلسطين. هذه الثورة أجبرت البريطانيين على التفاوض من أجل الانسحاب من فلسطين، في الوقت الذي كان السوريون يفاوضون الفرنسيين في باريس حول مستقبل سوريا.

وصل القاوقجي لفلسطين مع قوة قوامها 200-300 شخص فقط، من العراق وسوريا بشكل أساسي، بينما كانت القوات البريطانية في ذلك الوقت تقدر بحوالي 20 ألفاً. وبعد مناوشات استمرت لعدة أشهر، أجبر على الخروج من فلسطين.

في عام 1936 كان ياسين الهاشمي، وهو قومي عربي، رئيساً للحكومة العراقية ومن الداعمين للثوار الذين يريدون التوجه إلى فلسطين. غير أن انقلاباً عسكرياً قاده حكمت سليمان وبكر صدقي -وحكمت من التركمان، وبكر كردي، وكلاهما لا يميلان للروابط العربية، وإنما يفضلان التركيز على العراق وتعدديته- أوقف أي مساعدة للثورة في فلسطين. وعندما عاد القاوقجي إلى العراق، تم نفيه إلى كركوك ذات الأغلبية التركمانية، والتي غالباً لن يجد فيها مؤيدين لبرنامجه القومي.

لاحقاً عاد القاوقجي للانضمام لحركة المقاومة ضد الإنجليز والفرنسيين، إلا أنه أصيب إصابة بالغة في الطريق من الحدود العراقية إلى منطقة تدمر. تم نقله إلى حلب، ثم إلى اليونان، ومنها إلى برلين لتبدأ مرحلة جديدة من حياته استمرت منذ 1941، إلى سنة 1947.

حياة القاوقجي في ألمانيا النازية:

هذه الفترة كانت موضع اهتمام مكثف من قبل المؤرخين الهواة الذين أرادوا الربط بين إقامة قومي عربي في ألمانيا النازية لعدة سنوات، وما اعتبروه عداءً للسامية في الكفاح الذي خاضه القاوقجي بعد ذلك ضد تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين. أهم مقالة تتعلق بتفاصيل حياته في ألمانيا ظهرت عام 1995، وكُتبت من قبل المؤرخ الألماني غيرهارد هوب، والذي أوضح بشكل جلي أن اهتمام القاوقجي بالقوة الألمانية في تلك الفترة كان ناتجاً عن رغبته بالتخلص من الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، ولا يتعلق بأي عداء للسامية، أو أي اهتمام بالأيديولوجيا الألمانية.

اعتمد غيرهارد هوب على الإرشيف الألماني في معلوماته المتعلقة بعلاقة القاوقجي بالجنود والسياسيين العرب المقيمين بألمانيا حينها، ومعظمهم كان يأمل بأن انتصار المحور الألماني-الإيطالي سيؤدي إلى استقلال الدول العربية، وقد حدثت مفاوضات مع كل من الخارجية الألمانية والخارجية الإيطالية حول هذا الأمر. ومن أهم الشخصيات التي كانت في برلين في تلك الفترة، إضافة للقاوقجي، مفتي فلسطين أمين الحسيني ورشيد عالي كيلاني الذي قام بانقلاب على الحكومة العراقية الموالية للبريطانية، ولكن تدخلت بريطانيا وأزاحته مما اضطره للهرب، وأيضاً الصحفي السوري منير الريس الذي رافق القاوقجي في الكثير من محطات حياته، والذي شكلت مذكراته أحد روافد هذا العمل.

لم يتطرق القاوقجي في مذكراته التي كتبها في السبعينيات من القرن العشرين لمسألة الهولوكوست، كما أن بضع الصفحات التي خصصها لحياته في ألمانيا كانت تتعلق بشكلٍ خاص بالمفاوضات التي كانت تجري حول مسألة استقلال الدول العربية مع فجر الانتصار الألماني في الشرق الأوسط. في إحدى اللقاءات مع أحد الضباط الألمان، والذي أعلن له أن دول البحر المتوسط الشرقية ستكون تحت الانتداب الإيطالي عند انتصار دول

المحور، رد عليه القاوقجي بأنهم سيقاتلون الإيطاليين حينها كما يقاتلون الفرنسيين والإنجليز الآن.

لم يكن القوميون العرب هم الوحيدون الذين أقاموا في برلين خلال فترة الحرب، بل كانت ألمانيا تشجع وتدعم كل الحركات المعارضة للحكم البريطاني والفرنسي، ولذا وُجدت فيها قيادات من الهند وإيرلندا وغيرها من الدول التي كانت تحت الحكم الاستعماري الفرنسي أو الإنجليزي.

مع دخول القوات السوفياتية لبرلين تم اعتقال القاوقجي وإيداعه سجناً روسياً في برلين الشرقية لعدة أشهر، ثم وُضع في الإقامة الجبرية، لكنه تمكن من الهرب عبر حدود برلين نحو الجهة التي كانت تحت السيطرة الأمريكية في 8 شباط 1947، ليتوجه بعدها مباشرة إلى باريس. وبعد عدة أسابيع قضاها في استعادة عافيته، توجه إلى بلده طرابلس في لبنان عن طريق القاهرة في واحدة من أخطر الرحلات في حياته. إذ هبطت الطائرة دون سابق تخطيط في مطار اللد -شُيّدَ سنة 1936 من قبل الانتداب البريطاني في فلسطين- ، والذي كان لا يزال تحت السيطرة البريطانية، وكان حينها مطلوباً للبريطانيين بالكثير من التهم، غير أنه نجا ووصل سالماً للقاهرة.

تشكل مسألة نجاته من الاعتقال في مطار اللد أحد المواضع التي تعمل الوثائق الغربية على سد الفجوة التي تتركها كتب السير الذاتية، إذ تكشف الوثائق البريطانية عن المحاولات الحثيثة لاعتقاله في اللد. غير أن سوء التنسيق بين الأجهزة البريطانية في فلسطين والأجهزة الفرنسية في مطار باريس حال دون اعتقاله، إذ لم يتم تأكيد صعوده للطائرة، وعندما صعد الجنود في مطار اللد إلى الطائرة للتأكد من وجوده لم يجدوا إلا شخصاً أشقر الشعر، أزرق العينين بجانب سيدة ألمانية، ولم يشكوا بأنه القاوقجي.

حرب فلسطين 1948م:

عاد القاوقجي إلى لبنان عام 1947، وبعدها انتقل إلى دمشق ليعيد تواصله مع الأصدقاء السابقين من أيام الثورات العربية، ومع السياسيين الحاليين في البلاد.

مع إعلان بريطانيا في خريف 1947 نيتها الانسحاب من فلسطين، شعر العرب بعمق الأزمة، ودعوا لاجتماع طارئ في عاليه بلبنان في أكتوبر من عام 1947، حضره رئيس الوزراء السوري شكري القوتلي، ورئيس الوزراء العراقي صالح جبر، ومع أن القاوقجي لم يكن يحمل أي صفة رسمية إلا أنه دُعي لحضور المؤتمر.

عُرض في ذلك الاجتماع تقرير لجنة تقييم الأوضاع في فلسطين، والتي كانت بقيادة الجنرال العراقي إسماعيل صفوان، وقد تضمن التقرير معلومات حول المؤسسات الصهيونية، وذكر أن الوكالة اليهودية في فلسطين تجهز نفسها لسد الفراغ الذي سيتركه الانسحاب البريطاني. وذكر التقرير أن الوكالة لديها حوالي 20 ألف جندي مدربين، إضافة إلى الاحتياط، وأن الصهاينة قد طوروا خطوط تواصل متقدمة، إضافة إلى الكثير من المتطوعين الذين يعملون على تأمين الدعم اللوجستي والمادي من أوروبا وأمريكا.

ذكر التقرير أن الفلسطينيين في المقابل ليس لديهم أي شيء مقارن أو قريب من ذلك. وانتهى التقرير بتوصيات مختلفة، منها تكوين جيش عربي يكون جاهزاً على حدود فلسطين، إضافة إلى التوصية بإيصال السلاح للفلسطينيين، والدعوة لانضمام المتطوعين، وهم ما شكل نواة جيش الإنقاذ العربي. وربما يكون هذا التقرير هو الدراسة الموضوعية الوحيدة التي شرحت الوضع بشكل واقعي بعيداً عن الاستخفاف بقوات العدو وتجهيزاته، وبعيداً عن العنتريات والبطولات الفارغة.

شغلت مسألة تكوين جيش الإنقاذ، والتحضيرات والصعوبات التي رافقت ذلك حيزاً واضحاً من الكتاب، فهو -برأي الباحثة- يعد جانباً مهماً من حرب 1948، غير أن صدمة الهزيمة التي حدثت في الحرب جعلت الكثير من المؤرخين والباحثين وحتى أصحاب المذكرات الشخصية يختزلون القضية بشكل مبسط، غالباً ما يلقي اللوم على الآخرين في محاولة لتجنب تحمل مسؤولية تلك الكارثة.

شهدت تلك المرحلة الكثير من النقاشات، ولكن من دون اتخاذ أي إجراءات فعلية، ومضت عدة أشهر ولم تصل لا الأسلحة الموعودة ولا المبالغ التي التزمت بدفعها الدول العربية. إضافة لذلك، فإن أمين الحسيني، مفتي فلسطين، كان يعمل جاهداً على تشويه سمعة القاوقجي والتقليل من مصداقيته لعدم موافقته على توليه قيادة الجيش. خلاف المفتي مع القاوقجي يعود إلى ثورة 1936 في فلسطين، إذ عارض دخوله إلى فلسطين وشجع الشباب الفلسطيني على الالتحاق بجماعات أخرى، ودفع القاوقجي أخيراً للخروج من فلسطين. ولم تتوقف الخلافات عند هذا الحد، إذ تصادف وجود كلٍ منهما في برلين في الوقت ذاته، وبلغ الأمر بالمفتي أن يكتب تقريراً للخارجية الألمانية يتهم فيه القاوقجي بأنه جاسوس بريطاني.

القائد فوزي قاوقجي والتحضيرات لإعداد جيش الإنقاذ:

تم تجهيز معسكر قريب من بلدة قطنا ليكون مركزاً لتجمع المتطوعين العرب الراغبين بالالتحاق بجيش الإنقاذ. غير أن العديد ممن جاء للتطوع غادر لعدم وجود تجهيزات أو رواتب. إضافة إلى ذلك، لم يكن هناك العدد الكافي من الضباط الأكفاء لتدريب المتطوعين. وعلى الرغم من تضارب المصادر المتعلقة بعدد المتطوعين في جيش الإنقاذ فإنه يقدر بحوالي 4000 شخص معظمهم من سوريا والعراق.

ومع كل ما لاقاه الجيش لاحقاً من إخفاقات، فإن الباحثة ترى أن تكوين جيش من لا شيء خلال عدة أسابيع وتوجهه للقتال برغم ضعف خبرة المنتسبين له، هو إنجاز كبير. وفوق ذلك، فإن صلاحيات القائد العام لجيش الإنقاذ، فوزي القاوقجي، كانت محدودة نتيجة الولاءات المختلفة للكتائب المتنوعة والتي كانت تتبع بعض قياداتها المحلية وداعميها.

دخل جيش الإنقاذ فلسطين وخاض بعض المعارك خلال أشهر آذار، نيسان، وأيار. وفي 14 أيار 1948 أعلن البريطانيون نهاية الانتداب، وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل، وتحولت قوات الهاغاناه إلى جيش الدفاع الإسرائيلي. في ذلك التاريخ تحركت الجيوش العربية: السوري والعراقي من الشمال، والأردني حول القدس والمصري من الجنوب.

الجانب الأهم الذي يبرزه هذا العمل هو وضع قتال القاوقجي للإسرائيليين في 1948 ضمن سياق ثورات التحرير العربية، إذ كان قتاله في فلسطين ضد تأسيس وطن قومي لليهود استمراراً لقتاله ضد الفرنسيين والإنجليز في حرب تحرير من محتل. وللتأكيد على هذه النقطة كثيراً ما تصف الباحثة المستوطنين بـ «الأوربيين»، للتأكيد على أنها حرب استقلال، وليست حرباً دينية أو عداء للسامية كما سعى الكثير من الباحثين لتصوير تلك الحرب، رغم أنها مسألة تتعلق بالفكر النازي بشكل أساسي، وغالبا ما تم اسقاطها على العرب للاستثمار في مسألة المظلومية والعداء للسامية. بينما الواقع يشير بوضوح إلى أنها كانت وما تزال مسألة استعمار واستيطان غربي أوربي، وليست مسألة صراع ديني بالأساس، وإن كان تم استخدام الدين كأيديولوجيا تغذي أطراف الصراع وتعمل على شحنهم وإثارتهم.

لذلك فان وضع الصراع العربي الإسرائيلي ضمن إطار الكفاح العربي للاستقلال من الاستعمار الأوربي، يساهم في تصحيح الفكرة التي تريد أن

تؤطر الصراع ضمن إطار ديني، وليكشف الكتاب للقارئ الغربي أن الكفاح العربي ضد إنشاء دولة إسرائيل لا يقوم على أساس ديني، بل هو امتداد للنضال ضد الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي بعد الحرب العالمية الأولى.

تفاصيل حرب 1948 للقارئ الغربي من وجهة نظر عربية:

ربما لأول مرة تُروى تفاصيل حرب 1948 للقارئ الغربي من وجهة نظر عربية، من مثل التحركات السياسية والعسكرية، والمحاولات المستميتة للدفاع عن القرى والبلدات الفلسطينية، والمشاكل السياسية والبيروقراطية بين جامعة الدول العربية الناشئة حديثاً والحكومات ذات الصلة بالقضية الفلسطينية في سوريا والأردن ومصر ولبنان. هذا العرض السلس، والذي يُظهر الجانب الإنساني للمقاتلين العرب بشكلٍ قلّما نشاهده في الدراسات الغربية، يقدم للقارئ شرحاً مبسطاً عن الأسباب التي شكّلت العالم العربي منذ حوالي نصف قرن، والتي لا تزال آثارها واضحة وجلية. فمن الصعب فهم واقع العالم العربي دون الإحاطة بهذه الأحداث، وبشكل خاص القضية الفلسطينية، وربطها بالصراع العربي من أجل الاستقلال الذي لا يزال مستمراً حتى الآن.

لقد تم وصف القاوقجي بأنه عميل فرنسي، وعميل بريطاني، وألماني، وتم تحميله مسؤولية هزيمة 1948، وتم العمل على تشويه سمعته في الكثير من مراحل حياته، ومع ذلك نجد أنه كان حاضراً وفاعلاً في معظم الأحداث، وكثيراً ما كان ملاحقاً ومعتقلاً ومنفياً. ورغم أن القاوقجي لم يقر بأي مسؤولية تتعلق بحرب 1948، غير أن سوء تقديره لقوة الهاغاناه كان عاملاً مهماً، إضافة إلى العداوة مع المفتي أمين الحسيني والتي زادت من صعوبات العمل مع الفلسطينيين.

إن لم تعمل الباحثة على تحليل أسباب الفشل العربي إلا أنها أشارت مراراً إلى قلة خبرة المتطوعين العرب في جيش الإنقاذ، بل وقلة المدربين أيضاً، إضافة

إلى قِدم الأسلحة ونقص الإمدادات العسكرية واللوجستية. إلى جانب التقليل من قدرات القوات اليهودية حينها. وأما على النطاق السياسي، فإضافة إلى المخاوف والأطماع والطموحات الشخصية للكثير من الشخصيات السياسية، أشارت إلى أن معظم الدول العربية ذات العلاقة بتلك الحرب كانت قد خرجت حديثاً من تحت سيطرة الاستعمار، ولم تكن قد بنت دولاً مستقرة ولا جيوشاً مدربة، وأما جامعة الدول العربية فلم يكن يتجاوز عمرها الأعوام الثلاثة.

استخدمت المؤلفة طيفاً واسعاً من الوثائق العربية في سبيل إعادة بناء أحداث تلك المرحلة الحاسمة في تاريخ العرب. إضافة إلى الأرشيفات العربية والغربية المتعلقة بالأحداث والمنطقة، ومن بينها أرشيف عائلة القاوقجي الخاص، ووثائقه وملاحظاته الشخصية.

إضافة لذلك فقد عادت إلى الكثير من المذكرات الشخصية للسياسيين والجنود في تلك المرحلة، مع إشارتها إلى إشكالية الاستناد إلى المذكرات الشخصية في موضوعية البحث التاريخي، إلا أن تعدد تلك المذكرات – ذكرت في المصادر 17 منها، عدا مذكرات القاوقجي ومنير الريس – يمكن أن يقدم وجهات نظر مختلفة ومتباينة مما يحدّ من تأثير شخصية بعينها. وبالطبع الجرائد والمجلات والمقالات التي نشرت في تلك المرحلة بمختلف اللغات، إضافة إلى الدراسات والأبحاث التي تناولت تلك المرحلة، وكان لها دور في تتبع الأحداث.

عندها تراجع دور القاوقجي، وأصبح يقضي معظم وقته في القاهرة في مقر جامعة الدول العربية في محاولة لتأمين الإمداد العسكري والمادي لجيش الإنقاذ. ونتيجة عدم التجاوب مع طلباته تقدم بالاستقالة مرتين، وفي الحالتين طُلب منه البقاء كقائد لجيش الإنقاذ. غير أن هذا الجيش لم يعد له أي دور فعلي مع دخول الجيوش العربية النظامية، ومع ذلك فقد بقي منه حوالي 1000 إلى 2000 مقاتل في الميدان حتى آخر الحرب.

لم ينخرط القاوقجي بالسياسة بعدها، ولم يلعب أي دور أساسي في حياته، واختار حياة بسيطة متواضعة في بيروت، حتى وفاته في 15 ديسمبر 1976. وكثيراً ما عبّر عن غربته بين السياسيين وعن صدمته نتيجة انفصالهم عن واقع الأرض والمعركة.

في النهاية، يمثل الكتاب مصدراً مهماً في توضيح أحداث منطقة الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن العشرين. كُتب بأسلوبٍ سلس، حيث تم تجنب الهوامش، والاستعاضة عنها بملاحظات ختامية تتعلق بالمصادر المستخدمة في تناول كل مرحلة من مراحل البحث. وهذا ما أدى إلى عملٍ تاريخي موثق، ولكن بأسلوب سردي يعطي القارئ الانطباع بأنه يقرأ رواية مليئة بالأحداث والمغامرات، ينتقل بين الجيوش والمعارك والثورات وكواليس السياسة وسنوات الغربة والسجن، لتنتهي الرواية بفاجعة سقوط فلسطين.

صالح صائب الجبوري: كيف حضرت عنده «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية»؟[3]

هو الفريق أول صالح صائب الجبوري (1898 – 1993) قائد عسكري وسياسي عراقي، تولى رئاسة أركان الجيش العراقي عام 1944، كما شغل مناصب وزارية مختلفة خلال العهد الملكي في العراق. ولد في بغداد عام 1898، وأكمل دراسته العسكرية في مدارس بغداد وإسطنبول. التحق بالجيش العثماني في نوفمبر/ تشرين الثاني 1915، بمنصب آمر فصيل في جبهة القتال في (جناق قلعة) في شبه جزيرة جاليبولي. في يونيو/ حزيران 1919، قرر البقاء في العراق وقطع ارتباطه عن الحكم العثماني. وعند تشكيل الجيش العراقي، عين في 20 أغسطس/ آب 1921 في الفوج الثاني واشترك بدورة تدريبية. بعد نجاحه عيّن معلماً فيها ثم معلماً في الكلية العسكرية وفي مدرسة الأسلحة الخفيفة. وفي أيلول 1927، أوفد إلى إنجلترا للالتحاق بأحد ألوية الجيش البريطاني لمدة سنة وأشترك بدورات مدرستي نذر آفون وهايث، وهما مدرستين متخصصتين في الأسلحة الخفيفة والمتوسط ونجح بدرجة امتياز. بعد عودته إلى العراق في أواخر سنة 1928، عيّن آمر جناح الرمي في مدرسة الأسلحة الخفيفة وضباط الصف. وفي سنة 1931، اشترك بدورة كلية الأركان العراقية مدة سنتين وتخرّج منها بدرجة امتياز وعيّن معلماً في الكلية.

في أواخر عام 1933، عين بمنصب مرافق أقدم للملك غازي وهو برتبة مقدم ركن. وفي عام 1935، عيّن آمراً لمدرسة ضباط الصف الأسلحة الخفيفة. وفي عام 1936، عيّن آمراً للواء الأول ثم آمرًا للواء الخامس ثم ضابط ركن أول للفرقة الثانية في كركوك. وفي 19 مارس 1939، تمت إحالته على التقاعد لأسباب شخصية ومن دون مبرر قانوني، على إثر أحداث انقلاب

(3) كيف حضرت «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية» عند صالح صائب الجبوري؟، رأي اليوم اللندنية، كانون الثاني/ يناير 2022. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

بكر صدقي. وفي 12 تشرين الثاني 1939، عين بوظيفة معاون مدير نقليات السكك الحديدية وفي 12 نوفمبر 1940، تم ترقيته إلى منصب معاون مدير السكك الحديدية العام حتى 20 أغسطس 1941.

في تموز 1941، صدرت أرادة ملكية بموجبها أُعيدت خدماته إلى الجيش وأُعيدت له كافة حقوقه التي سبق وسُلبت منه عند الإحالة إلى التقاعد. وفي 21 آب 1941، أُنيطت به قيادة الفرقة الأولى ومقرّها بغداد. وفي أواخر عام 1944، تم أسناد منصب رئاسة أركان الجيش له وهو برتبة أمير لواء ركن حتى تمت ترقيته إلى فريق ركن وهي أعلى رتبة عسكرية في الجيش العراقي حصل عليها ضابطين فقط في تاريخ الجيش العراقي قبل عام 1958، وقد شغل هذا المنصب لأطول فترة في تاريخ الجيش العراقي في العهد الملكي منذ عام 1944–1951.

هما يروي صالح صائب الجبوري في كتابه «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية» (654 صفحة من القطع الكبير)، بالتفصيل وقائع حرب فلسطين في سنة 1948، من موقعه رئيسًا لأركان الجيش العراقي إبانها، الأمر الذي يجعل هذه المذكرات مصدرًا مهمًا في كتابة التجربة العسكرية العربية، علاوة على كتابة تاريخ فلسطين المعاصر، وجانب من تاريخ الجيش العراقي. وتكمن أهمية هذا الكتاب في تصحيحه كثير من المعلومات غير الدقيقة والشائعة جدًا في الكتابات العربية عن دور الجيوش العربية في حرب فلسطين ومنها أكذوبة «ماكو أوامر» (ليس هناك أوامر). أما الغاية فهي إضاءة الحقيقة التاريخية لتكوين وعي صحيح بتلك الحقبة الفاصلة من تاريخ العرب.

يتضمن هذا الكتاب نبذة تاريخية وافية عن قضية فلسطين وعن الصهيونية واليهود والانتداب البريطاني، وعرضًا مسهبًا للوقائع السياسية التي سبقت اندلاع القتال في فلسطين غداة قرار التقسيم في سنة 1947، ثم تفصيلات

الحرب والحركات العسكرية للجيش العراقي والمعارك التي خاضها حتى توقيع اتفاقيات الهدنة وتسليم المناطق الفلسطينية إلى الجيش الأردني. ويحتوي الكتاب، إلى ذلك كله، فصولًا عن العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 وحرب حزيران 1967، وتقارير وملاحق وخرائط إيضاحية.

في كتاب "محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية" أورد المؤلف وبتفصيل دقيق مدعوم بالوثائق ضعف القوات النظامية العربية وضعف التنسيق بينها الذي أدي للهزيمة وأورد أن حجم القوات العراقية المشاركة في فلسطين كان هو الأكبر وأنها تمكنت مع الجيش الأردني من الحفاظ علي الضفة الغربية. وللتدليل علي جدية العراق في تلك الحرب أشار إلي أن رئيس وزرائه اقترح في اجتماعات رؤساء الحكومات العربية في القاهرة في فبراير/ شباط عام ١٩٤٧ تنفيذ مقررات مجلس الجامعة العربية في توقيف أعمال شركات النفط في كافة البلاد العربية وإلغاء امتيازاتها وهو ما لم يعمل به.

يوم الأربعاء 17 أيلول/ سبتمبر 2014، اقام «مركز الحوار العربي» في منطقة واشنطن أمسية خاصة مع الدكتور عامر الجبوري حول الطبعة الجديدة من كتاب والده، صالح صائب الجبوري، الفريق الأول الركن في الجيش العراقي سابقاً، ورئيس أركان الجيش العراقي خلال حرب فلسطين عام 1948. وقد عرض الدكتور عامر الجبوري خلال الأمسية هذا الملخص عن الكتاب (محنة فلسطين): لـــو اراد القارئ أن يدقق في محنة فلسطين في حرب 1948 لما وجد أفضل من مذكرات صالح الجبوري القائد العسكري الذي اشرف على القوات العراقية المقاتلة في فلسطين ليفعل ذلك. مذكرات الجبوري ستمسك القارئ من يده وتسير به لا عبر تفاصيل المعارك القتالية وتقنيات التكتيك العسكري وتعقيدات الاستراتيجية العسكرية فحسب، بل عبر دهاليز السياسة بما فيها من هيمنة ومقاومة ومؤامرة وتهافت.

هـي قـراءة موجعـة في الدرجـة الرئيسـة بالرغـم مـن أن الجبـوري كتـب مذكراتـه بانضبـاط العسـكري, والتـزام القائـد الحربـي بالتحليـل الموضوعـي والوصـف الدقيـق البعيـد عـن ردود فعـل قـد تسـمى عاطفيـة . ولكنـك مـع ذلـك تقـرأ تحليلـه الموضوعـي ومـا زلـت تشـعر بألمـه, والـذي سـرعان مـا يصبـح ألمـك انـت لسـبب بسـيط جـدًا، لقـد جسـد الجبـوري في رؤيتـه لوقائـع الحـرب في فلسـطين وجهـة نظـر قواتـه العراقيـة في المعركـة. ولأن الجيـش العراقـي كان الجيـش الوحيـد الـذي دافـع عـن فلسـطين وكأنهـا جـزء مـن ترابـه الوطنـي دون مراوغـة او مماطلـة او تخـاذل او تآمـر مـن قبـل قيادتـه السياسـية، وكان الوحيـد مـن بـين جيـوش الـدول الأخـرى الـذي نجـح في الحفـاظ علـى الأراضـي التـي التـزم بحمايتهـا والدفـاع عنهـا في وجـه القـوات اليهوديـة المتقدمـة دون هـوادة, فـإن موقفـه يغـدو كمـا لـو كان موقـف الفلسـطينيين انفسـهم. أي اننـا لـو اردنـا أن نبحـث عـن نظـرة موضوعيـة لوقائـع حـرب 1948 لمـا وجدنـا افضـل مـن وجهـة نظـر الجيـش العراقـي لالتحامهـا مـع هـم فلسـطين ومهمـة تحريرهـا التحامًـا يـكاد يكـون تامًـا.

هنـا لا مجـال هنـا للمبالغـة في الروايـة أو التلفيـق أو التنميـق، فمذكـرات الجبـوري عـن حـرب فلسـطين موثقـة برسـائله وبرقياتـه ومخاطباتـه، الموجهـة إمـا للقيـادة العسـكرية علـى جبهـة القتـال في فلسـطين بمـا فيهـا مـن أوامـر حربيـة لمعالجـة الأمـور الطارئـة في الميـدان, أو موجهـة لرؤسـائه وزيـر الدفـاع او رئيـس الـوزراء يضمـن فيهـا تحليلـه للأوضـاع العسـكرية وهـي تتغيـر بسـرعة هائلـة فيؤسـس عليهـا نصيحتـه للقيـادة السياسـية, أو تفاصيـل ودقائـق اجتماعاتـه مـع سياسـيي وعسـكريي الـدول المشـاركة في الحـرب ينقلهـا الـى رؤسـائه يسـتنصحهم ويستشـرف اوامرهـم. وقـد مـلأت هـذه النصـوص صفحـات الكتـاب بشـكل لا يتـرك عنـد القـارئ اي شـك بصـدق الروايـة والرؤيـة.

في هذا الصوت العراقي العسكري الموّثق الناقد والمحتج دوماً على الانحراف, يختلط وجع فلسطين بوجع العراق بوجع العرب اجمعين، فهزيمة الجيوش العربية في فلسطين لم تؤد إلى خسارة الأراضي الفلسطينية للمشروع الصهيوني فقط، بل إلى تكريس الضعف السياسي العربي لعقود تلت، تمامًا كما تنبأ الجبوري في إحدى رسائله. هو صوت وتحليل عسكري وسياسي يشير إلى حقيقتين قد تبدوان للوهلة الأولى متناقضتين:

اولاهما: أن المصاعب التي واجهتها جيوش الدول العربية وقيادتها السياسية في حرب فلسطين عام 1948 كانت قاهرة مانعة بحاجة إلى إرادة سياسية وعسكرية للتغلب عليها.

ثانيتهما: إن التغلب على هذه المصاعب او على الأقل على بعضها لم يكن مستحيلاً بل في متناول العرب لو ارادوا. لماذا؟ لأن السلوك العراقي السياسي والعسكري اثناء الحرب كان مثالاً على الارادة المقاومة والمجسدة لمهمتها تجسيدًا حقيقيًا.

قد تكون خسارة الحرب قدرًا لم يكن باستطاعة العرب تجنبه, لكن مقدار الخسارة وحجمها لم تكن قدرًا على الاطلاق. ففي رواية الجبوري عن حرب 1948 نتبين بأن حكومات الدول المشاركة في الحرب كانت ما زالت في ذلك الحين فتية سياسياً, ولو انها كانت من الناحية الشكلية «مستقلة». فتبعيتها للمستعمر وخاصة بريطانيا كانت ما زالت قائمة وبشكل محسوس اثر الى حد بعيد بمستوى وطبيعة اداء جيوشها في الحرب. فنرى الجيش العراقي مثلا يلجأ إليها لتجهيز عتاده من لأسلحة والذخيرة فلا يلقى منها سوى المماطلة والتسويف مما يشي عن نيتها بإفشال المهمة العسكرية. فيضطر الجيش الى اللجوء إلى مصادر اخرى للتسلح فيشتري عتاده من موردي سلاح غير معروفين, بتكلفة اعلى لبضاعة غير مضمونة!.

نرى شبح بريطانيا في خلفية القرارات السياسية المصرية في الحرب، فهي تارة (مصر) تحرك جيشها عسكرياً بطريقة مريبة وبإستقلال عن الإرادة العربية الجمعية, ثم تسرع إلى الهدنة مع اسرائيل دون التشاور مع الدول الاخرى، تفعل غير ما تلتزم به، ويكذب ممثلوها في روايتهم عن وقائع تحركات جيشهم العسكرية. فتأثير بريطانيا على مجريات الحرب كان حاضراً بقوة في 1948، ليس عن طريق اضعاف القدرة العسكرية للجيوش العربية بالتسويف والمماطلة في تجهيزها عسكرياً وبالتأثير من وراء الكواليس على قرارات حربية عربية كانت تثير الريبة عند المراقب للأحداث فحسب، بل وبالدفع ايضًا إلى إنجاح المشروع الصهيوني عن طريق مساعدة القوات اليهودية في استغلال تقدمها العسكري للسيطرة على أوسع منطقة ممكنة من الاراضي الفلسطينية. وكان الجانب البريطاني ومعه الامريكي مهتمين بتسليح وتدريب الجانب اليهودي والتغطية الديبلوماسية لخروقاته لشروط الهدنات اثناء الحرب, وكان واضحاً أن بريطانيا قد استخدمت قوتها الدبلوماسية والسياسية للتأثير على القرار السياسي العربي لمصلحة القوات اليهودية.

إن مذكرات الجبوري بتوثيقها المتتابع للقرارات العراقية السياسية والعسكرية تُذكرنا بأن الحقيقة المفجعة لم تكن تبعية الحكومات العربية للقرار البريطاني ، وإنما درجة هذه التبعية. فالعراق اثناء (حرب 1948) وحسب مذكرات الجبوري كان مثالاً لمقاومة هذه التبعية وتحدّيها ومواربتها. ومما لاشك فيه بأن سياسة المقاومة والتي اتحدت فيها القيادة العراقية السياسية مع العسكرية قد أتت اكلها على الأرض. يسجل التاريخ بأن قتال الجيش العراقي في فلسطين كان الأكثر كفاءة وقدرة, الأمر الذي جعل القوات اليهودية تحسب حسابه لدرجة انها كانت تتحاشى الاشتباك مع مباشرة ولجأت الى الايقاع به من خلال الجيوش العربية الأخرى عن طريق استغلال تبعيتها البنيوية لبريطانيا. نعم كان القرار البريطاني

عاملاً في إضعاف الجيوش العربية، ولكن من المؤكد ايضاً أن العراق قّدم نموذجاً مغايراً في مقاومة هذا القرار والتحايل عليه، الأمر الذي يظهر ان درجة تبعية الآخرين لبريطانيا لم تكن سوى خيارًا سياسيًا من قبل الحكومات العربية وهو معيب أخلاقيًا ويستحق ان تسأل عنه لا من قبل شعوبها فحسب ولكن بالدرجة الأولى من قبل الشعب الفلسطيني الخاسر الأعظم.

يبقى أن الجبوري حصل على عدد من الأوسمة والأنواط التي حملها، منها مُنح نوط الخدمة الفعلية عام 1933. ومُنح وسام السيف من درجة قائد من قبل ملك السويد عام 1935. كذلك مُنح أوسمة الرافدين من الدرجة الرابعة والثالثة والثانية من النوع العسكري في السنوات 1936، 1941، 1948 على التوالي. ومُنح وسام الاستحقاق من درجة قائد من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية عام 1947. ووسام النهضة من الدرجة الأولى من حكومة المملكة الأردنية الهاشمية عام 1947. أيضًا وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة عام 1949. ووسام أستور من الدرجة الأولى من ملك الأفغان عام 1950. ونوط الحرب لسنة 1939–1945. ومُنح نوط النصر سنة 1950. كما لديه أوسمة من الجيش العثماني هي «حرب مدالية سي» و«نوط الحرب» و«كمولي لياقة مدالية سي» و«نوط الاستحقاق الفضي» خلال فترة الحرب العالمية الأولى 1914–1918. بعد تركه الجيش في تموز 1951، عين عضوًا في مجلس الأعيان وترك الخدمة في الجيش بناء على طلبه. وفي أيلول 1954، استوزر في وزارتي نوري السعيد الثانية عشر والثالثة عشر وزيراً للمواصلات والأشغال العامة (1954–1957)، كما شغل هذا المنصب في وزارة أحمد مختار بابان عام 1958. وعُين في وزارتي عبد الوهاب مرجان ونوري السعيد الرابعة عشر وزيراً للإعمار.

في الأخير فقد ألف الجبوري خلال حياته عدة كتب عن الأسلحة العسكرية، منها (محنة فلسطين وأسرارها العسكرية والسياسية)، طبع في بيروت، لبنان عام 1970. و(صفحات من تاريخ العراق المعاصر 1914-1958)، مذكرات الفريق أول ركن صالح صائب الجبوري.

فيصل بن الحسين: في مذكراته بين النشأة والثورة ونداء الوحدة العربية وصولًا للملكية العراقية[4]

هي البدايات حضرت عندما وقف فيصل بن الحسين في 18 يناير/ كانون الثاني 1919 في مؤتمر الصلح في باريس، بوصفه ممثل العرب الأوحد أمام مجلس العشرة. يومها نادى بوحدة العرب واستقلالهم، متسلحًا بوعود الإنجليز للشريف حسين ومبادئ ويلسون الـ14 وأهمها الحق في تقرير المصير.

يقول الملك فيصل في مذكراته: «وصلت باريس ودخلت المؤتمر وجمعية الأمم لبّث رغائب الشعب على قدر اجتهادي. رأيت أمم الغرب في حالة جهل عميق بأحوال العرب». ويضيف: «كانوا لا يعرفون عن العرب إلا ما يعرفونه عنهم في حكايات ألف ليلة وليلة، ليس إلا، يظنون أن العرب عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء، ولا شك أن جهلهم هذا جعلني أصرف وقتًا طويلًا لأفهم هذه الأمم».

عندما عاد إلى دمشق كان قد بدأ يقتنع بأن الحلفاء لن ينفذوا وعودهم له ولأبيه، فخطب للناس قائلًا: «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، حرية الأمة بيدها. لنسعى متحدين فنحيا حياة عزيزة، الاستقلال التام في الاتحاد التام».

في 8 مارس/ آذار 1920، اجتمع المؤتمر العام للشعب السوري في قاعدة النادي العربي بدمشق وقرأ عوني عبدالهادي بيان إعلان استقلال المملكة السورية، بحدودها الطبيعية ومن ضمنها فلسطين.

كيف تطورت الأمور في ذلك الحين وصولًا إلى هذا الإعلان، ودور فيصل في تلك الفترة؟

(4) فيصل بن الحسين: في مذكراته بين النشأة والثورة ونداء الوحدة العربية وصولًا للملكية العراقية، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

النشأة والانتقال إلى إسطنبول:

وُلد فيصل بن الشريف حسين، شريف مكة، ربيع عام 1883 في مدينة الطائف. كان محط رعاية والده الذي أراد تنشئته تنشئة عربية فترعرع في أحضان البادية. عندما بلغ فيصل العاشرة من عمره، انتقلت أسرته إلى الأستانة لتلحق بأبيه الشريف حسين، الذي كانت أصداء زعامته السياسية تتردد في عاصمة الدولة العلية العثمانية. فقرر السلطان عبد الحميد الثاني أن يبقيه قريبًا منه وتحت أنظاره. هنا تجدر الاشارة إلى أن الأمير فيصل عاش فترة طويلة في إسطنبول مع والده وإخوته استمرت لخمسة عشرة عامًا، وهذا يعني أنه أصبح على دراية بالمجتمع التركي والحياة السياسية التركية. وهذا الأمر سيجعله يلعب دورًا لاحقًا، لا سيّما بعد عام 1908 والانقلاب الدستوري، لأنه سيكون قائدًا للثورة العربية. وفي 24 فبراير/ شباط 1908، عيّن السلطان عبد الحميد الشريف حسين أميرًا على مكة، فعاد فيصل وأسرته إلى موطنه في الحجاز. لكن تصاعد الصراع بين السلطان وحركة الاتحاد والترقي، ترك الشريف حسين حائرًا بين الحفاظ على الولاء لخليفة تتضاءل سلطته، أو التعامل مع قيادة عسكرية قومية تمسك بزمام الحكم. وخلال عام واحد تمكّن حزب الاتحاد والترقي من عزل السلطان عبد الحميد الثاني. وعام 1912، عاد فيصل إلى إسطنبول ليبدأ مسيرته السياسية كنائب لـ«مجلس المبعوثان» عن مدينة جدة، ويتعرّف مباشرة إلى القادة الأتراك والضبّاط العرب في أجواء مشحونة نتيجة سياسات التتريك.

هنا نشير إلى أن الاتحاد والترقي كان حزبًا راديكاليًا، له أفكار متشددة في ما يتعلق بتصوره للدولة العثمانية والنظام السياسي الذي يفكرون بإقامته. ويوضح هذا أن الاتحاديين كانت لهم، عندما تسلموا السلطة في إسطنبول بعد الانقلاب الدستوري، آراء قائمة على المبادئ القومية، إن جاز التعبير، وبدأ من هنا التنافر بين العرب والأتراك.

اتصالات سرية مع الشباب العربي:

خسرت حكومة الاتحاد والترقي مساحات واسعة من البلاد، لا سيّما بعد حرب البلقان. واضطرت تحت الضغوطات الإيطالية إلى التنازل عن ليبيا ومنحها استقلالها، ما أثار مخاوف النخب العربية حول مصير بلدانهم في مواجهة الأطماع الاستعمارية ومدى قدرة السلطنة على حماية ولاياتها. ويجدر الشرح هنا إلى أن ما حصل بين عامي 1913 و1914 هو أن الحكومة العثمانية وقعت على اتفاقات مع كل من بريطانيا وفرنسا، وقبلها إيطاليا، ومع ألمانيا، بتوزيع الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ اقتصادية لمصالح هذه الدولة. وعليه، نشير إلى أن فكرة سايكس بيكو هي أقدم من تاريخ توقيع الاتفاقية، غير أن هذه الأخيرة نقلت توزيع مناطق النفوذ عبر جانب اتفاقي مع الحكومة العثمانية الرسمية إلى جانب سياسي لتصفية الدولة العثمانية. فالولايات العثمانية اتبعوا سياسة معادية للأعيان، ما جعل هؤلاء ينفضون عنهم وينضمون إلى الليبراليين والحركة اللامركزية العربية، التي اجتمعت وعقدت ما يؤرخ في تاريخ الحركة القومية بالمؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913. وفي يناير/ كانون الثاني عام 1915، وصلت إلى الشريف حسين رسائل مكتوبة تقترح قيام حركة تمرّد عسكرية ضد الأتراك. وفي الوقت ذاته، ناشدت جمعيتا العهد والعربية الفتاة الشريف حسين العمل على إنقاذهم من طلعت باشا وكمال باشا، فأرسل ولده فيصل إلى دمشق ليقيم اتصالات سرية مع الشباب العربي هناك. ويلفت الانتباه هنا إلى أن الشريف حسين كان قد أرسل في هذه الآونة الأمير فيصل للتوسط من جهة مع الاتحاديين، ولمفاوضتهم ومماطلتهم في طلباتهم المتعلقة بإرسال مقاتلين من الحجاز إلى جبهات القتال من جهة أخرى. ففيصل زار لهذا السبب دمشق والتقى جمال باشا أكثر من مرة في غضون 1915 ثم 1916، موضحًا أن الأمور حينها كانت تتجه نحو مزيد من التعقيد والعداء بين الأتراك والعرب. كذلك ففيصل أقام في هذه الأثناء علاقات مع الناشطين

من العربية الفتاة في دمشق، والتقاهم سرًا خارج دمشق، ونسقوا الخطوات المقبلة لأن مسألة الثورة أصبحت شبه مؤكدة ولكن مؤجلة لظروف. كذلك جمال باشا اتبع –لا سيما بعد إخفاق حملته المدوي على السويس– سياسة القبضة المشددة على بلاد الشام ونخبها، واعتبر أن هناك شبح ثورة عربية ستندلع في بلاد الشام.

في 6 مايو/ أيار 1916، نصب جمال باشا أعمدة المشانق لنخب ومثقفين عرب في بيروت ودمشق. وأثارت تلك الإعدامات غضبًا عارمًا بين العرب. وبعدما صرّح فيصل بأن جمال باشا سيدفع لما ارتكبه ثمنًا باهظًا، أصبحت حياته مهددة في دمشق، فغادرها حاسمًا أمره بإطلاق الثورة. ونلفت إلى أن العرب وبينما كانوا يطالبون عام 1913 بنوع من اللامركزية، لم يعد الكلام عنها مجديًا بالوصول إلى عام 1915. ولهذا السبب أخذ الشباب العربي يطالبون سرًا وعلانية باستقلال البلاد العربية، موضحًا أن الشريف حسين كان على دراية بكل هذه التطورات من خلال ابنه فيصل والذين يأتون إلى مكة .

إعلان بدء الثورة العربية الكبرى:

السبت 10 يونيو/ حزيران 1916، خرج الشريف حسين بن علي إلى شرفة قصره في مدينة مكة وأطلق رصاصة من بندقيته معلنًا بذلك بدء الثورة العربية الكبرى، وعيّن فيصل قائدًا لجيش الشمال.

يقول فيصل: «إنني لا أعمل أبدًا لا لإنكلترا ولا لفرنسا، بل للعرب وللعرب فقط، وأنا دائمًا أخ لإخواني في الجنس والدين». ويضيف: «لقد طلب والدي في كتاب أرسله عام 1915 ما يلي: أولًا يجب أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية، وعليها فوق ذلك أن توافق على إعلان خليفة عربي للمسلمين، وثانيًا على دولة الشريف العربية أن تعتبر إنكلترا الدولة المفضلة في جميع المشاريع الاقتصادية».

وضعت قيادة الثورة العربية إستراتيجية عسكرية تستهدف قطع طرق إمداد الجيش العثماني وعزل وحداته وتطويقها في الصحراء الشاسعة. ونفذ الثوار عمليات خاطفة ومركزة على الأهداف الحيوية، وأهمها سكك الحديد التي مثلت الشريان الرئيسي لإمدادات الجيش العثماني. واقترب من فيصل في هذه الفترة النقيب توماس إدوارد لورانس، المعروف بلورانس العرب، وهو ضابط استخبارات بريطاني كان يرى أن فيصل يمثل رأس حربة التحالف بين بريطانيا والثورة العربية في مواجهة العثمانيين. ثم عام 1917، انتهت حرب الحجاز عقب انتصار قوات فيصل المدعومة من بريطانيا في معركة العقبة، ليصبح فيصل قائد الجيش العربي، ويرنو بعينه إلى مركز قيادة القوات التركية في دمشق.

«العرب لا يرغبون بالانفكاك»:

بموازاة ذلك، أدى قيام الثورة البلشفية إلى خروج روسيا من الحرب العالمية الأولى، فقام المفوض السابق للشؤون الخارجية ليون تروتسكي بنشر تفاصيل اتفاقية سايكس بيكو ما كشف عن نوايا القوى الكبرى ومطامعها الاستعمارية. ونشير هنا إلى أن جمال باشا قام بنشر هذه الاتفاقية ووجّه رسالة إلى الحجاز بأن يتم الاتحاد العربي – التركي في مواجهة خطط التقسيم التي قررها الحلفاء. ونلفت إلى أن الاتصال الحقيقي بين فيصل والقيادة العثمانية العسكرية، حدث قرابة الشهر الأخير من الحرب، موضحًا أن جمال باشا المرسيني، وهو غير جمال باشا السفاح، وجه بالاتفاق مع القيادة الألمانية رسائل إلى فيصل بأن يتم عقد صلح عربي تركي. ونبيّن أن فيصل أكد في سلسلة المراسلات هذه، والتي تم نشرها، أن العرب لا يرغبون بالانفكاك عن الدولة العثمانية، بل بأن يعيشوا مع الأتراك في دولة تشبه ملكية النمسا المجر. ثم أنهت تطورات الأحداث الميدانية مسار الاتصالات بين الأتراك والعرب، إذ قطعت قوات الجنرال اللمبي خطوط

الإمـداد والاتصـالات الجنوبيـة عـن دمشـق، وخاضـت قـوات فيصـل المعركـة الأخيـرة في الكسـوة غـرب دمشـق، وهُـزم الجيـش العثمانـي الرابـع هنـاك.

«هكذا اكتشفنا الحقيقة المرة»

دخـل فيصـل علـى رأس الجيـش العربـي إلـى دمشـق مطلـع أكتوبـر/ تشـرين الأول 1918، ورفـع علـم الحجـاز رباعـي الألـوان ابتهاجًـا بانتصـار العـرب. وعـن المرحلـة التـي تلـت ذلـك، يكتـب الملـك فيصـل: «ظهـرت الخديعـة الأولـى عندمـا أخبرنـي الماريشـال اللمبـي أن سـوريا ستُقسـم إلـى ثـلاث مناطـق بحجـة أن هـذا الترتيـب سـيكون إداريًـا ومؤقتًـا فقـط». ويضيـف أن «الضربـة الثانيـة كانـت عندمـا أعلنـوا لاحقًـا أن سـايكس بيكـو كانـت اتفاقيـة حقيقيـة، بعدمـا أنكـروا هـذا سـابقًا». ويشـير إلـى أنـه رأى بعينيـه الخريطـة ذات الألـوان الثلاثـة التـي تقسـم البلـد، ويـردف: هكـذا اكتشـفنا الحقيقـة المـرة. وسـارعت فرنسـا مـع انزيـاح خطـر العثمانيـين في الشـام إلـى المطالبـة بتسـليم حصتهـا مـن الأراضـي السـورية، تنفيـذًا لاتفاقيـة سـايكس بيكـو. فأمـرت بريطانيـا الأميـر فيصـل، قائـد الجيـوش الشـمالية، بتـرك السـواحل وتسـليمها إلـى القـوات الفرنسـية. ويقـول بـاروت إن اللمبـي أمـر بإنـزال العلـم العربـي عـن سـرايا بيـروت وتسـليمها إلـى الوحـدة الفرنسـية، التـي دخلـت إلـى المدينـة. ويلفـت إلـى أن فيصـل اضطـر رغمًـا عنـه إلـى الموافقـة علـى هـذا الإجـراء، بعدمـا أخـذ مـن اللمبـي تعهـدات بـأن هـذا الإجـراء عسـكري وليـس سياسـيًا، إلـى أن يتـم انعقـاد مؤتمـر الصلـح وأن يقـرر ترسـيم الحـدود». بعـد ذلـك، انتهـت الحـرب العالميـة الأولـى وارتفعـت الرايـة البريطانيـة المضلعـة في فلسـطين وسـوريا ولبنـان والعـراق.

في 22 نوفمبـر/ تشـرين الثانـي 1918، حملـت سـفينة إنجليزيـة عبـرت البحـر المتوسـط مـن بيـروت إلـى مرسـيليا، فيصـل بـن الحسـين ومستشـاريه إلـى أوروبـا الغربيـة، ليشـارك في مؤتمـر الصلـح في باريـس، الـذي يعـد أحـد

المؤتمرات المؤسسة لعالمنا اليوم. وبينما شارك في المؤتمر ممثلون عن 32 دولة، كان لفرنسا وبريطانيا دور تاريخي في إصدار قرارات حددت مصائر شعوب ودول. وكانت فرنسا ترفض بتعنت المشروع العربي. ونكشف هنا أن لورانس حاول إقناع فيصل بإمكانية الاعتماد على الحركة الصهيونية من أجل الحصول على دعمها في مواجهة المطامع الفرنسية في الساحل. وبناء على نصيحته، التقى فيصل حاييم وايزمن ممثل الحركة الصهيونية. وفي 3 يناير 1919، وقبل أسبوعين من انعقاد مؤتمر باريس للسلام، وُقعت اتفاقية من 9 نقاط عُرفت لاحقًا باتفاقية (فيصل – وايزمان). وتضمنت الاتفاقية الاعتراف بوعد بلفور وتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين، مع الحفاظ على حقوق العرب في فلسطين والحرية الدينية فيها وتقديم المساعدة للحكومة العربية المستقبلية.

كيف أُخرج من سوريا ونُصب ملكًا على العراق؟

لم يتجاوز عمر الملك فيصل بن الحسين الخمسين عامًا، إلا أنه لعب دورًا مركزيًا في الأحداث والتقلبات التي مرت بها الأمة العربية، وسط القرارات الحساسة والصراعات الكبرى. وجعل هذا الأمر فيصل شخصية جدلية في حياته وبعد مماته. ففيصل كان مزيجًا بين بدوي أصيل وسياسي معاصر، وشكل مثالًا حيًا لروح الحرية والاستقلال. ورغم الخلاف الكبير حول فيصل بين التخوين والتبجيل، فإن صراعه مع أقطاب العالم من أجل استقلال وتحرير سوريا ودوره في بناء مؤسسات العراق الحديث، كان الإرث الذي حرص فيصل على تخليده. وكان الملك فيصل شاهدًا على التحولات الكبرى التي عاشها العالم العربي؛ واجه خصومه في ميادين القتال وفاوضهم في قاعات المؤتمرات. فمن الدولة العثمانية إلى دول الحلفاء، تطورت علاقته بكل الأطراف الفاعلة، وتبدلت من مرحلة إلى أخرى. فلم يكن له صديق دائم أبدًا.

«غايتي الوحيدة استقلال الأمة العربية»:

في أواخر عام 1919، بدأت مرحلة جديدة في علاقة الأمير فيصل بالبريطانيين، حيث تفاجأ السوريون بإعلان بريطانيا بدء انسحاب قواتها من سوريا لتحل مكانها القوات الفرنسية. اعتبر السوريون ذلك تطبيقًا عمليًا لاتفاقية سايكس بيكو، فثار غضب النخب في بلاد الشام وسارت المظاهرات في شوارعها. أما فيصل، فقد رأى أن البريطانيين قد غدروا به. وأمام غضب الشارع، دافع عن نفسه رافضًا اتهامه بالاتفاق مع الفرنسيين على ما يجري. وكتب فيصل حينها: «لقد قمت بثورة في وجه الترك، وغايتي الوحيدة استقلال الأمة العربية. ولكن بعض الناس يتوهمون أنني عقدت اتفاقًا في باريس». وأضاف: «ليس لهذا الوهم ظل من الصحة، فأنا ابن محمد وابن أولئك الأجداد الكرام، فأنا أسير على خطتهم ولا أرضى ولن أرضى بأي اتفاق كان سوى استقلال البلاد العربية».

هنا نشير إلى تغيير حقيقي بدأ في العلاقات بين فيصل والسياسة البريطانية، لتقوم على ضعف الثقة والحذر، مع قيام فيصل بدعم عمليات الضباط العهديين في شن أعنف الهجمات ضد القوات البريطانية في العراق. ومع تصاعد الخلافات بين بريطانيا وفيصل، قطعت بريطانيا المعونة الشهرية التي كانت الحكومة العربية تعتمد عليها في تسيير شؤونها، فعانت الحكومة العربية أوضاعًا اقتصادية صعبة. وأصبحت تلك المعونة وسيلة ضغط على حكومة فيصل للقبول بالمشروع الصهيوني والانتداب الفرنسي. ونشرح هنا إلى أن ما سمي إعانة لم يكن كذلك في الواقع كما يوحي الاسم «بل حقوق الحكومة العربية عن عائداتها الجمركية نتيجة الواردات على مرفأي بيروت وحيفا». ونوضح أن الحكومة العربية عاشت عقب قطع المعونة أزمة حقيقية، لا سيما على صعيد تمويل رواتب الجيش العربي والدرك، واضطرت إلى اتباع سياسة تقشفية لتخفيف عجز الموازنة.

«الانتداب كلمة لا معنى لها»:

في ذلك الوقت، كانت البرقيات تصل إلى الحكومة الفرنسية من رئيس بعثتها في دمشق الكولونيل تولا، الذي كتب في إحداها: «أنا لم أر في حياتي شيئًا كهذا.. إنه هنا بين شعبه محاطًا بأمته. إنه القائد الحقيقي لهذا الشعب، ويكفي لأي كان أن يرى صور وحجم هذه الحشود ليعرف أنه لا داعي للجنة لتقصي الحقائق في هذا البلد». ومع ذلك، أصرت الحكومة الفرنسية على تجاهل هذه المعطيات.

في 8 مارس/ آذار 1920، توجت اجتماعات المؤتمر العربي السوري العام بإعلان الاستقلال والمناداة بفيصل ملكًا على سوريا، لكن الحلفاء رفضوا الاعتراف بقرارات المؤتمر السوري واستقلال المملكة السورية. وبمضي أيام على إعلان الاستقلال، انعقد مؤتمر سان ريمو في إيطاليا بحضور ممثل المملكة السورية نوري السعيد.

الملك فيصل:

قرر الحلفاء وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي المباشر، وانتهت بذلك القضية العربية دوليًا وتحتمت المواجهة مع الفرنسيين، فيما أعلن فيصل رفضه الخضوع للانتداب. وكتب فيصل في هذا الشأن: الانتداب كلمة لا معنى لها في أي قاموس، تفسر تارة على أنها أقسى شكل من أشكال الاحتلال، وتارة على أنها لا تؤثر في استقلال الأمم. وأضاف: «أيًا كان معناها، فإنها وصمة عار على الأمم التي تريد الحرية. ثقوا أن قائدكم لن يقبل أن تكون مملكته تحت أي ملك أيًا كان..». ونذكر هنا بأن فيصل استخدم كل أساليبه الدبلوماسية في العلاقة مع الفرنسيين، الأمر الذي تبينه مراسلاته مع الجنرال غورو والدراسات التاريخية ومصادر المعلومات في تلك الفترة، لكن دون أن ينجح في ذلك. ونشير إلى أن العامل الخارجي كان الأكثر حسمًا، وتمثل في الاتفاق الفرنسي البريطاني على التخلص من فيصل.

«رفضه سيؤدي حتمًا إلى مصيبة»:

كان الجنرال هنري غورو قائد قوات الشرق، وأحد أهم مناصري نظرية الحرب حتى الإبادة، قد تفرغ للعرب بعد توقيع الهدنة مع مصطفى كمال في تركيا. ومع إعلان فرنسا تعزيز قواتها في جيش الشرق بثلاثين ألف مقاتل، أرسل الملك فيصل نوري السعيد إلى بيروت لتلمس نوايا غورو. وفي 14 يوليو/ تموز 1929، سلمه غورو مذكرة صارت تعرف بـ»إنذار غورو»، وفيها أمر للملك فيصل بتسليم سوريا رسميًا إلى الانتداب الفرنسي وحل الجيش العربي. وأشار فيصل بشأن المذكرة، إلى أنه «بالرغم من لهجة غورو القاسية في إنذاره غير المشروع فقد بذلت كل جهد لأقنع حكومتي بالموافقة عليه، فقد كنت أعرف أن رفضه سيؤدي حتمًا إلى مصيبة». وإن تحدث البعض عن ضغوط إنكليزية من جهة لكي يفاوض فيصل الفرنسيين، وكذلك الضغوط الفرنسية العسكرية. ففيصل أرسل في هذه الأثناء المفاوضين إلى الجنرال غورو لكن كما يقال: سبق السيف العذل، بمعنى أنه لم يكن قادرًا على تحقيق أي جزء من المطالب التي رفعها. ونشير إلى أن الفرنسيين أعطوا الأمير فيصل مهلة تصل إلى 48 ساعة لكي يرضخ لمطالبهم، ووقعت بعد ذلك معركة ميسلون الشهيرة.

أمل الاستقلال يلفظ أنفاسه الأخيرة:

في 24 تموز/ يوليو 1920، اجتمعت القوات المتبقية من الجيش العربي في وادي ميسلون بقيادة يوسف العظمة لمواجهة الفرنسيين. ومن مشارف قرية الهامة، وقف الملك فيصل ليشاهد الأمل بالاستقلال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. وبينما كانت القوات الفرنسية تدخل دمشق بطريقة استعراضية، خرج فيصل إلى الكسوة حيث استقبله الناس فاتحًا قبل سنتين. وبعد يومين من اللقاءات بحثًا عن حل أخير مع الفرنسيين، جاءه الكولونيل تولا ليبلغه برسالة من غورو؛ يطلب إليه فيها مغادرة دمشق مع عائلته ومرافقيه بأسرع وقت ممكن وعبر سكة حديد الحجاز.

نصب فيصل ملكًا على العراق بعد استفتاء شعبي:

غادر الملك فيصل دمشق مع عدد من رفاقه متجهًا إلى درعا، واجتمع بقيادات عشائرية دعته إلى بدء حرب جديدة ضد فرنسا، إلا أن الملك آثر تجنيب البلاد ويلات حرب غير متكافئة مع الفرنسيين، فتوجه إلى حيفا في طريقه للإبحار إلى أوروبا. وكان آخر ما خاطب به الناس قبل رحيله عن سوريا إلى الأبد: أنا مغادر الآن، ولا أدري أين سأتجه، شرقًا أو غربًا، لقد طلبت الدعم من الناس مرات عديدة ولكنهم قالوا إنني أسعى للمناصب، وأعقد الاتفاقيات السرية. طلبت منهم أن يثقوا بي وأن يطيعوني لكي أجد الطريق الصحيح، ولكن لم أجد أحدًا مهتمًا». وأردف: «عندما رأيت الخطر بعيني وأشرت إلى أنه يجب علينا أن نبني سياسة من الحكمة والتحديث لم يستمع أحد. وذهبت آرائي كلها أدراج الرياح. وعلى الله الخلف». ونعتبر أن تجربة الحكومة العربية في دمشق خلال أقل من سنتين، هي تجربة أولى وهامة من حيث المستقبل، لافتًا إلى أنها أسست لفكرة وحدة العرب. ونشير إلى أنها تختصر ليس فقط الواقع العربي عام 1920، بل أيضًا التاريخ العربي الممتد حتى يومنا هذا.

ثورة العشرين في العراق:

من ناحيته، كان العراق لقرون طويلة مسرحًا للكثير من الصراعات التي مزقت وحدته. فمن حملات المغول المدمرة إلى المد والجزر المتكرر والعنيف بين الصفويين والعثمانيين، فقدت مدنه ازدهارها وساد الصراع بين عشائره وأطيافه. والعراق كان مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ساحة مواجهة عنيفة بين العثمانيين والإنجليز. وسقطت بغداد عام 1917 بيد البريطانيين، ونصبت المشانق فيها. وبعد انتهاء الحرب فرض الانتداب البريطاني على العراق، فتوالت اجتماعات العشائر الرافضة له وتشكلت الوفود للمطالبة بمنح البلاد استقلالها. ومع تجاهل البريطانيين لهذه المطالب، اشتعلت

الثورة في 30 يونيو/ حزيران عام 1920، فبدأت عمليات اغتيال ضباط الإنجليز، وحوصرت الحاميات العسكرية وعمت الثورة أرجاء العراق. وكان من نتائج ثورة العشرين أن بحثت إنكلترا عن نمط حكم جديد يكون أكثر قبولًا لدى العراقيين، فرأت في اعتلاء فيصل عرش العراق فرصة للتهدئة وأرادت تقديم سلطة إنجليزية بوجه عربي.

ويلفت إبراهيم خليل العلاف، الكاتب والمؤلف والمؤرخ العراقي، إلى أن الملك فيصل كان يدعم نضال العراقيين من أجل التحرر والتخلص من الاستعمار البريطاني، مشددًا على أن الثورة العراقية الكبرى ثورة وطنية عراقية اشترك فيها العرب والأكراد والتركمان وكل العراقيين. ويتحدث عن تشكل قوات تسمى قوات الدفاع العربي الوطني، كانت بقيادة جميل المدفعي، الذي أصبح في ما بعد رئيسًا للوزراء بعد تشكيل الدولة العراقية الحديثة.

«أقبل بشرطين: الاستقلال وإلغاء الانتداب»

في آزار/ مارس 1921، عقد مؤتمر القاهرة بحضور وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل واتفق المشاركون على تنصيب فيصل ابن الحسين ملكًا على العراق بعد إجراء استفتاء شعبي. وكان البريطانيون يأملون أن يؤدي هذا إلى إنهاء الثورة، إلا أن فيصل صرح قائلًا: إنني لا أقبل أن أكون ملكًا على العراق إلا بشرطين: استقلال البلاد وإلغاء الانتداب. وعد الإنجليز الملك فيصل بتحقيق مطالبه، لكن ذلك كان بداية مسلسل جديد من المماطلات. ويلفت العلاف إلى أن مؤتمر القاهرة، وكان للدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الأوسط، التقى مع مصالح العراقيين في أن يكون فيصل ملكًا على العراق، حيث تم اختياره من بين مجموعة من المرشحين لعرش البلاد.

في 23 أغسطس/ آب عام 1921، نصب فيصل ملكًا على العراق بعد استفتاء شعبي، وتزين مجمع السراي الحكومي في بغداد للاحتفال بولادة المملكة

العراقيـة. وقـال فيصـل حينهـا: أتقـدم إلـى الشـعب العراقـي الكـريم بالشـكر الخـاص علـى مبايعتـه إيـاي مبايعـة حـرة دلـت علـى محبتـه لـي وثقتـه بـي. وأسـأل اللّٰه عـز وجـل أن يوفقنـا لإعـلاء شـأن هـذا الوطـن العزيـز، وهـذه الأمـة النجيبـة لتسـتعيد مجدهـا الغابـر».

نـوري السـعيد: في مذكراتـه شـخصية.. منـازع الملـوك في حقـل العلـوم السياسـية قبـل التاريخيـة[5]

لا يُمكـن اسـتحضار تاريـخ العـراق الملكـي دون المـرور علـى شـخص السياسـي البـارز نـوري السـعيد، ذلـك الرجـل الـذي مثّـل حجـر الزاويـة الأساسـي لتلـك الفتـرة دون منـازع حتـى مـن الملـوك أنفسـهم. وطالمـا نُظـر إليـه علـى أنـه «رجـل الإنقـاذ» الـذي يلجـأ لـه الملـك كلمـا ضاقـت بـه السُـبُل واسـتحكمت الأزمـات السياسـية. الشـخصية العراقية التاريخية المهمة، والتي دون له التاريخ مواقف سياسـية كانـت تمـارس في حقبـة تاريخيـة، وتأتـي هـذه القـراءة لمذكراتـه لمـا لهـا مـن خصوصيـة حيـث أنهـا ترتكـز علـى أفـكار الشـخص، وليـس هـذا وحسـب بـل وعلـى الأفـكار التـي كانـت في تلـك الحقبـة ضمـن السـياق التاريخـي وكيفيـة فشـل الاسـتعمار والتحديـات المطروحـة مـن التحـرر وبنـاء الدولـة.

لـكل هـذا، لـم يُبالـغ أبـدًا المُؤرّخ البريطاني أنتوني ناتنج Anthony Nutting حـين وصـف عهـد المملكـة الهاشـمية في العـراق بأنـه «عهـد نـوري السـعيد»، الرجـل الـذي اعتمـد عليـه الهاشـميون، أكثـر مـن غيـره، في بنـاء دولتهـم، ليـس في العـراق وحـده بـل في الحجـاز وسـوريا أيضًـا.

نعتمـد في هـذه المقالـة البحثيـة علـى ثـلاث نمـاذج مـن مواقفـه ذات تأثيـر سياسـي في حقبـة مـن حقبـه التاريخيـة، نظـرا للممارسـة السياسـية لنـوري السـعيد، ذلـك باسـتجلاء نسـق المـدركات السياسـية التـي أثـرت في تكوينـه، انطلاقًـا مـن أهـم المحطـات التـي أنجزهـا والتـي كان لهـا تأثيـر ووقـع علـى العلاقـات العربيـة في مـا بينهـا.

يـدور موضـوع هـذه المقالـة حـول المبـادئ السياسـية للسياسـي نـوري السـعيد في كيفيـة التخلـص مـن تبعيـة الاسـتعمار بالتعامـل مـع المحتـل. لذلـك فالسـؤال

(5) نـوري السـعيد: في مذكراتـه شـخصية.. منـازع الملـوك في حقـل العلـوم السياسـية قبـل التاريخيـة، رأي اليـوم اللندنيـة. كذلـك الموسـوعة الجزائريـة للدراسـات السياسـية والاسـتراتيجية.

الرئيسي المطروح هنا هو كيف ينظر الممارس السياسي نوري السعيد إلى مفهوم الحرية والتخلص من تبعية المستعمر عن طريق التعامل والتعاون معه، وذلك انطلاقا من أهم المواقف والقرارات التي اتخذها، وكيف كانت تتسم علاقاته بالدبلوماسية الحنكة في ما بين العرب. ومحاولاته من اجل تحقيق الوحدة في المنطقة.

نوري السعيد اعتمد على قدرته الشخصية، أي انه ليس صاحب مشروع سياسي محدد، غياب المشروع التمثل القيمي والتمثل الموضوعي. ولهذا السبب جعل الشعب يتعارض معه دومًا ويكن له الكره، حيث انه ليس له وصفة سياسية تتماشى مع مدركات الشعب آنذاك، ومناطق التعامل مع المستعمر تعطي التفكير دوما إنك تابع له، والحرية كانت الحلم الذي تتوق إلى تحقيقه كل الشعوب.

يحتل مفهوم الحرية مكانة محورية في حقل العلوم السياسية، على اعتبار أن علم السياسة في أصله هو علم محوره السلطة وغايته الحرية التي تتوق الى تحقيقه كل الشعوب ومن هنا تأتي أهمية دراسة مواقف مثل هؤلاء السياسيين من اجل تحقيق الحرية والوحدة كقيمة سياسية داخل المجتمعات الإنسانية، وان فقه نظرية القيم السياسية يرى أن « ...القيم السياسية هي في مجموعها تعبير عن وحدات التراث الإنساني، فيما يمثله من تقدم في مدركاته ونظمه، وتقاليده، بل وفي ممارسته اليومية كذلك .....» أن الوحدة والحرية لها مكانة محورية في حقل العلوم السياسية على اعتبار.

إن مفهوم الحرية كقيمة سياسية نشأت وتطورت داخل منظومة معينة في كل شعب، فهي تجعل من الحرية الأصل والنتيجة، والباعث والهدف. فنسق المدركات السياسية والجماعية في الحضارة الغربية، يعتبر الحرية بمثابة القيمة الفردية العليا التي تعطى لها الأولوية على باقي القيم الأخرى،

كالمساواة والعدالة. لقد ساهم انتماء نوري السعيد للفكر الليبرالي الغربي، مرة منها أثبتت عجزه عن تحقيق بعض الأهداف التي ظل ينادي بها. ومما أدى إلى ظهور وجهة نظر انتقدت النتائج التي وصلت إليها الليبرالية معتبرين انه كان يخدم مصالحه الشخصية على حساب مصالح العامة من الشعب، كان يعلن نور السعيد دوما بالبحث في طرق تحقيق الوحدة والتحرر من المحتل وعيا منه بان الوحدة تحقق القوة أمام المحتل وتساعد على تحقيق الحرية لكن يتم ذلك بالتعاون مع المحتل.

نوري السعيد نشأته ومدركاته السياسية:

الفريق نوري السعيد هو عسكري وسياسي من قادة العراق ومن أساطين السياسة العراقية والعربية وإعرابها إبان الحكم الملكي، وزير ورئيس وزراء لفترات متعددة ساهم بتأسيس عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية والجامعة العربية التي كان يطمح بترؤسها، كانت له ميول نحو مهادنة بريطانيا على الرغم من حسه الوطني العالي. بدا حياته ضابطا في الجيش العثماني وشارك بمعارك القرم شمال البحر الأسود بين الجيش العثماني والجيش الروسي. وبعد خسارة العثمانيين عاد لوحده من القرم إلى العراق، قاطعا مسافات كبيرة تارة سيرا على الأقدام وأخرى على الدواب.

كان نوري السعيد يعتبر وما يزل شخصية سياسية كثر الجدل والآراء المتضاربة حولها. اسمه الكامل نوري السعيد صالح من الملا طه القرغولي، ولد في بغداد في محلة [تبة الكرد] بالقرب من ساحة الميدان وذلك سنة 1888م، وقتل في سنة 1958م، وتخرج من الأكاديمية العسكرية التركية في اسطنبول، خدم في الجيش العثماني وساهم في الثورة العربية وانضم إلى الأمير فيصل في سوريا. ليصبح نوري باشا السعيد من ابرز السياسيين العراقيين أثناء العهد الملكي. وبعد فشل تأسيس مملكة الأمير فيصل في

سوريا على يد الجيش الفرنسي، اضطر إلى الهروب مرتين من العراق بسبب انقلابات حيكت ضده، ثم عاد إلى العراق وساهم في تأسيس المملكة العراقية والجيش العراقي، تولى منصب رئاسة الوزراء في العراق 14 مرة بدأ من وزارة 23 مارس 1930 إلى وزارة 1 مايو 1958.

انتمى نوري السعيد إلى الجمعيات السرية المنادية باستقلال العراق والعرب عن الدولة العثمانية ثم شارك في الثورة العربية الكبرى مع الشريف حسن بن علي، ويشير عبد الوهاب بيك النعيمي في مراسلات تأسيس العراق بأنه قد اختير لعضوية المجلس التأسيسي للعراق عام 1920 ممن قبل الحكومة البريطانية في العراق برئاسة المندوب السامي السير بيرسي كوكس حيث تشير المراسلات بأنه كتبت المس بيل بعد أول لقاء لها مع نوري السعيد : إننا نقف وجها لوجه أمام قوة جبارة ومرنة في أن واحد، ينبغي علينا نحن البريطانيون أما أن نعمل يدا بيد أو نشتبك وإياها في صراع عنيف يصعب إحراز النصر فيه : وفي اعتقاد السفير البريطاني في بغداد بيترسون بان نوري باشا ظل لغزا كبيرا، لأنه بات بعد العام 1927م، وتحديدا بعد مقتل رئيس الوزراء عبد المحسن بيك السعدون، صعب الإقناع في بلد لم يتعود ألاذعان لرجل أو الخضوع لسلطة.

ظلت المبادئ السياسية التي ووضعها الرعيل الأول بعد الثورة العربية الكبرى هي الأسس التي سار عليها نور السعيد طيلة حياته السياسية. فالسياق التاريخي لمرجعية نور السعيد السياسية كان عمادها التحرر من جهة أخرى بانتهاز الفرص المؤتية وليس بعجز التحدي، وذلك عن طريق العمل لا يمكن تجاهل خطوات العراق ومساعيه.

يتبين من خلال القراءة حول المسار السياسي والشخصي لنوري السعيد نجد مجموعة من الآراء ووجهات النظر المختلفة والمتناقضة التي كتبت حول عمل السياسي ومجموعة من النقد الموجه له وللأساليب والطرق التي كان يتبعها من اجل تحقيق الوحدة والتخلص من الاحتلال البريطاني آنذاك.

عرفت عنه علاقته الجدية مع بريطانيا، فكان نوري السعيد هو اليد اليمنى لبريطانيا وهو من وقع اتفاقية «سايكس بيكو»، للحفاظ على مصالح بريطانيا في المنطقة، والتي فشلت في عام 1936 بسبب ظهور التيارات القومية ضدها. ويعتبر نور السعيد صاحب فكر عسكري يستنبطه من الانجليز وهو ذا فكر ليبرالي بحت. كان نوري السعيد دبلوماسيا من الطراز الأول يتحدث الانجليزية بطلاقة، كان يبدو في مظهره جادا وحازما بل وقاسيا عند الضرورة، حاد الطبع، عصبي المزاج، سريع الغضب، الصفات التي لازمته طيلة حياته السياسية، حتى قيل عنه انه كثيرا ما كان يشترك في المشاجرات والمشاحنات، لكنه إذا ما أراد الوصول إلى غاية ما أو تكريس سياسة ما، فانه لا يثور ولا يتأثر، بل يتحمل النقد اللاذع من خصومه ويتعمد الغموض في أحاديثه ويوحي لمخاطبيه عن قصد بإشارات متناقضة أو تنطوي على تفسيرات متعددة، وبالفعل، كان نوري مناورا بصورة فريدة، يعرف كيف يستغل الظروف والمتغيرات ويكرسها لخدمة أهدافه. كان ميكافيليا بالفطرة، يؤمن بان الغاية تبرر الوسيلة، فكان يجيد اختيار ساعته.

يعرف كيف يقتنص الفرص الثمينة لتقوية أوراقه الرابحة له مبدأ خاص في الحكم عرف به وهو مبدأ «خذ وطالب» عرف نوري السعيد بسياسته الموالية كليا للغرب – بريطانيا وفي الفترة الأخيرة لبريطانيا وأمريكا ومسايرته للشركاء الاحتكاريين وهم الغرب على حساب مصالح الشعب. وبعدائه الشديد للحركة الجماهيرية التحررية وللاتجاه الوحدوي التقدمي العربي. وقد ربط العراق بسلسلة من المعاهدات مع بريطانيا ثم إدخال العراق في الأحلاف الاستعمارية (حلف بغداد) في الخمسينات وذلك بقصد محاربة حركة التحرر العربي تحت ستار محاربة الشيوعية ووافق وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالس على مجمل مواقفه ومن ضمنها الفكرة القائلة بان إسرائيل وجدت لتبقى. لاقي حتفه مع أركان النظام الملكي إثناء

حركة 14 تموز – يوليو 1958. إلا أن الاعتماد على بريطانيا لتحقيق الوحدة يتناقض ويتعارض مع فكرة الوحدة بالمنظومة العربية. حيث خلقت إشكالية في العلاقة البارزة المتمثلة اعتماده على بريطانيا المحتل لتحقيق الوحدة ألا انه في نفس الوقت كان يضرب أساس الوحدة.

يعتبر نوري السعيد برغماتي لا أكثر ولا اقل إلا انه يبقى من السياسيين المحترفين في وقت كان فيه عدد المحترفين الساسة قلة. كانت العلاقة الدولية في ذلك الوقت تحت تأثير فرنسي بريطاني، وان أمريكا لم تدخل إلى الشرق الأوسط إلا بعد أن بدأت موسكو في الانتشار وكان ذلك مع عام 1953 – 1956. حيث كانت هناك قوتين تشكل إمبراطوريات الفرنسية والبريطانية لذلك كانت علاقته تتحكم بهذا التأثير وجاء صدامه مع عبد الناصر، إلى رفض هذه التأثيرات، وكان الخلاف مع نوري السعيد يرجع لاستمراره في الاعتماد على بريطانيا، وكانت النتيجة إن بريطانيا تخلت عنه وتركته عندما تغيرت مصالحها في المنطقة وهنا يثبت إن المبدأ المعروف في السياسة البريطانية بان بريطانيا لها مصالح وليس لها أصدقاء.

مواقف نوري السعيد السياسية:

نوري سعيد ومشروع هلال الخصيب:

بعد تعرض العالم العربي إلى اصعب المشاكل التي تواجهها الدول المشتركة في موائد الصلح وهو تحديد خط الحدود الفاصلة بين الدول الكائنة في مناطق التقسيم بما يضمن حقوق ومصالح وكرامة الشعوب القاطنة فيها، فكثيرًا ما تطغى الاطماع الشخصية أثناء المفاوضات، فيفرض دون مراعاة العوامل الاقتصادية والجغرافية أو القيم البصرية والعقائدية السائدة فيها.

عاصر نوري السعيد نشأة الدولة العربية المذكورة بعد انهيار الدولة العثمانية خاصة بعد أن أصبحت المنطقة عرضة لأطماع الاستعمار لوجودها في بقعة

استراتيجية تمتد بين قارات ثلاث. وكان نوري سعيد يعتقد اعتقادًا جازمًا إن أسس نهضة البلاد المتقدمة تعتمد على نقطتين وعي شعوبها، وقوة انتصارها، وأخيرًا صلابة جيشها.

هذه الخبرة التي يمتلكها نوري السعيد بهذه البلدان عن كثب اذ عاش في أرجاء منها واحتك بأهلها على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم في الحرب والسلم على حد سواء. فكان اهل العرب لهم امل بعد الحرب العالمية الاولى ان تفي بريطانيا بوعودها المتكررة للأمة العربية. وهذه الوعود كانت تذر بزوغ نور الحرية على المنطقة الذي سادها حكم حزب الاتحاد والترقي الحاكم.

حاول نوري سعيد استغلال موقف قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل أن تضع أوزارها ويقنع المسؤولين في تلك الجبهة بضرورة انصاف العرب. بعد أن اتضحت أن الغلبة ستكون للحلفاء، قدم نوري السعيد مقترحات في حدود خبرته وبناء على ذلك فقد دون اراءه التي استقاها من خبرته الطويلة في ميادين الحرب والسياسة على تفهم المشاكل المتعددة التي تحيط بها ذا الموضوع فقرر أن يعالج الموضوع معالجة واقعية ويتقدم ببعض المقترحات في حدود خبرته. فقدم في مذكرة عنوانها (استقلال العرب ووحدتهم) مع إشارة خاصة إلى فلسطين ومقترحات ترمي إلى حل نهائي للمشاكل المحيطة بالموضوع.

تذكر هذه المذكرة كيف انتهت الحرب ويفسر اوجه الخلاف بين العرب والبريطانيين والفرنسيين، وعرض ما هي محاولات المساعي الجمعية الصهيونية التي تتمسك بأن ما يعنيه (الوطن القومي) في فلسطين هو دولة يهودية مستقلة.

حول فرصة انتهاء الحرب ليوضح للأمم المتحدة قبل فوات الاوان أن مناورات اليهودية الجريئة وتأثيرها على مستقبل البلاد العربية القرارات التي كانت، رفض انشاء دولة يهودية مستقلة. وضمان مستقبل الوطن القومي اليهودي على ما كان عليه في فلسطين بشرط أن يسود حكم شبيه بالحكم الذاتي ضمن دولة سورية عظمى وفي نطاق حلف عربي لنوري السعيد استهل مذكرته في

تقسيم الشعوب العربية إلى مجموعتين العرب القاطنون في افريقيا. والعرب القاطنون في سورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية. وهي الشعوب التي عاشت تحت لواء الإمبراطورية العثمانية كأجزاء إقليمية لا تفصل بينها حدود دولية. فهي نتيجة لتصرفات الحكومة الامريكية وعدم اكتراثها بحقوق العرب، والاستهتار بالقضية الفلسطينية، أو بمصير اللاجئين العرب، هذا بالإضافة إلى عدم الاستجابة إلى مطالب مصر العسكرية والاقتصادية وبذلك تسرب النفوذ السوفيتي إلى الشرق الاوسط.

جاءت حركة عبد الناصر نتيجة حتمية لسوء تصرف دول العالم الحر اتجاه العالم، ولكنها كانت تفتقر من الاساس إلى حكمة رجل الدولة الناضج من جهة، وإلى حسن تقدير القائد المحنك من جهة أخرى، فمن قصر النظر أن يتصور الإنسان أن «القرب» سيقف مكتوف اليدين ليرى حقوقه تتسرب بالتدريج تحت شعار الحياد الى منطقة حيوية تتشابك فيها مصالح الشرق والغرب اشتباكًا كاملًا. ومثل ذلك هواته ليس للشرق الاوسط اسواق اخرى لنفطه سوى الغرب. اما اذا اردنا تقدير مدى المساعدات العسكرية الفعلية التي تستطيع مصر ان تحصل عليها من السوفييت إلى جانبه في ميادين الحروب إذا قرر اشهار العداء للغرب علنا. وذلك نظرًا لبعد المسافات وصعوبة المواصلات – والمعلوم أيضًا عن سياسة السوفييت هو عدم دخولهم في حروب سائرة، فهم يقتصرون على تقديم العتاد واستعمال اساليب الحرب الباردة دون التعرض لاصطدام الجيوش في ميادين الوغى. وقد اثبتت الاحداث فيما بعد أن ماقاله نوري السعيد في هذا الشأن كان الصواب.

ميثاق بغداد :

كان ميثاق بغداد الذي عقد بين العراق والدول الإسلامية الثلاث تركيا وإيران وباكستان يهدف إلى خدمة المصالح الدولية المشتركة للبلاد المذكورة فوضعها الجغرافي يحتم ذلك، سواء أكانت محايدة او متحالفة

مع دول الغرب أو الشرق، حيث أن مصير العراق في هذا الشرق الاوسط حيث انه جزء لا يتجزا من مصير تلك الكتلة الجغرافية التي تمتد من نهد الاندوس في الشرق إلى البحر الابيض المتوسط في الغرب. وقد اثبت ذلك تاريخ المنطقة خصوصًا بعد أن تعززت روابط اجزائها بموجة روحانية شاملة بظهور الاسلام.

في مرحلة بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها في عام 1945 بعد سقوط الدولة العثمانية، وشهدت تلك المرحلة تطورات عديدة على ضوء منطقة بلاد الرافدين. عندما حلت جيوش الحلفاء وسيطرت جحافلها العسكرية بلاد الشام التي تتضمن بلاد الشام، فلسطين، الأردن، قناة السويس، مشرقها ومغربها حققوا نصرًا عسكريًا كبيرًا في المنطقة، وفرض سيطرتها وتحديد الحكام ومواقفهم من الحلفاء، وتلك الحقبة التاريخية كانت من الزمن العربي يتضح لنا جليلًا ما ألت له الأوضاع. والتغيرات والتحولات السياسية والاقتصادية الاجتماعية وخاصة في المنطقة العربية وانقلبت الموازين من جديد حيث ارتفعت رايات الحق في بغداد والشام وتونس تطالب بالحرية والاستقلال.

اندلعت الحركات في مصر عام 1952، وفي العراق عام 1958، ومن هنا اختلفت موازين الحلفاء من جديد لما لمصر والعراق، من أهمية في المنطقة وإستراتيجيتها السياسية والدولية والعالمية، وفي هذه المرحلة برزت بعض الاتجاهات القومية ضد الاحتلال في المنطقة. من هنا نشأت الخلافات اتجاه الاحتلال.

كان نوري سعيد الرجل السياسي المخطط والمنفذ لبرامج الاستراتيجية لصالح بريطانيا. ان الحكومة البريطانية هي التي بدأت بخرق المعاهدات والقيام بإعمال معادية، اضطرت العراق لاتخاذ احتياطات السلامة ومن واجب الحكومة العراقية، الأشراف والمحافظة على الاجانب ولم يحدث اي

شيء مما ورد في مذكرات الحكومة العراقية من انتهاكات ضد الانسانية آنذاك ومحاولتها أثارة الرأي العام ضده مما استغرب له نوري السعيد في ذلك الوقت ليكشف مؤامرات بريطانيا التي حيكت ضده.

التنافس الدولي على الشرق الأوسط :

نتيجة للسياسة الخاطئة التي كانت الامم الغربية تسلكها بتحيز في الشرق الأوسط حتى عام 1957، من سكوت وإهمال للقضايا الحيوية التي تخص الامة العربية هذه المساومات المراهقة والتلاعب بمصير الأمة، دفعت الرئيس عبد الناصر الى ممارسة سياسة المغامرة والتحدي، ويوثق ذلك التاريخ على ان ساسة العالم العربي ذواقو الأمرين مما طالت الشعوب المستعمرة منذ فجر النهضة العربية ووصلت بهم إلى انتهاز سياسة اليأس والملل. فلا غرابة اذن ان مجازفة عبد الناصر في قضية الاسلحة السوفيتية وجدت العذر له على ما اقدم عليه حتى من الساسة الذين يرفضون استعمال ساسة المغامرة في الامور التي تتعلق بمقدرات الوطن نظرا لخطورتها لأنها لو نجحت مرة فقد تفشل مرارًا ويكون الوطن هو الضحية.

أن سياسة التحدي مع تحليل موقف عبد الناصر في قضية الاسلحة السوفيتية ذلك بعد استشهاده اثر الانقلاب العسكري الذي قضى على الحكم الملكي الهاشمي في العراق، ففي تقييم مركز الخطوة الجريئة من الناحية السياسية والاجتماعية والعسكرية وأثرها على مصر والعالم العربي على المدى القصير والبعيد .

كان نوري السعيد يعتبر سياسة المجازفات والاستهتار ذنبًا لا يغتفر في حق الدولة. فهو يصرح في خطابه الشهير في ديسمبر سنة 1956 «بأنه يحق لرجل الدولة الامين ان يغامر بحياته ومركزه وبكل ما يملك إذا أراد ذلك ولكنه لا يجوز له قط ان يجازف بمقدرات او كيان الامة التي

يرعاها!». واعلن بعد ذلك في تصريحاته بأن الخطوة التي اتخذها عبد الناصر عندما ضاق ذرعا لا تستوجب اللوم قط. وقد قام بتسجيل جهود نوري السعيد السياسية عدد لا يستهان به من المؤرخين. وان هناك مجموعة من الاسباب الظاهرة والخفية التي دفعته الى اختيار خطط معينة وميزان خاص لخطواته.

نوري السعيد كان صاحب مدرسة واقعية صريحة لا تعتمد على المجازفات أو الارتجال اذ كان يكره تضليل الشعوب في سبيل كسب شعبية رخيصة. فكان لنوري السعيد نظرة خاصة بالتحرر والاتحاد، بغض النظر على ان يكون هذا الاتحاد بالرضا والتفاهم والتعاون المخلص والمساواة. ومن جهة اخرى كان يدعم توجه التحرر عن انتهاز الفرص المؤتية وليس بمجرد التحدي الأهوج. هذه المبادئ السياسية تعتبر من الاساسيات التي سار عليها نوري السعيد في حياته السياسية. حيث اجبرته الظروف احيانا الى الاعلان عن الاحكام العرفية لمدة محدودة عند نشوب ازمة حادة تهدد الامن في العراق على ان تسير الامور بعد ذلك في مجاريها بصورة طبيعية، أسس نوري سعيد حزب سياسي في سنة 1948، فسماه حزب الاتحاد الدستوري. من اجل توظيف علاقاته في خدمة الوطن، فكانت له علاقات أخوية وقديمة احتفظ بها، مثلا علاقته بأتاتورك التي دامت وسهلت حل مشاكل عديدة كانت تعكر صفو العلاقات القائمة بين البلدين، ويثبت ذلك سجل المفاوضات التي جرت بين القطرين قبل استقلال العراق وبعده. مما خلف بعده أعجاب بالجهود المشهودة لنوري سعيد في تحرير العراق، إذ عندما نجحت مفاوضات نوري السعيد مع بريطانيا واستقلال العراق، حيث كان من مميزات نوري السعيد قدرته على المسايرة وهذه كانت احد اراء اتاتورك في حقه.

نهاية نوري السعيد:

على كثرة الذين كتبوا عن مقتل نوري السعيد عصر يوم 15 تموز/ يوليو فما زال الحادث يكتنفه الغموض ومازالت تفاصيله موضع خلاف بين الذين كتبوا عن ثورة 14 تموز/ يوليو 1958 غير ان احدًا منهم لم يستطلع مكان الحادث ميدانيًا باستثناء المرحوم الدكتور اكرم فاضل الذي فعل ذلك. واتصل ببعض الذين وقعت الحادثة في محلتهم وكتب بذلك رسالة طريفة بعثها للمرحوم محمود العبطة اطلعت عليها في الايام الاخيرة.

في محاضر محاكمة عائلة الاسترابادي امام المجلس العرف العسكري تفاصيل اخرى وردت في افادة الذين رافقوا نوري السعيد الى حتفه.. وفي هذه النبذة القصيرة حاولت التوفيق بين مختلف الروايات المنشورة حول القضية مع تأكيدي على ان (شهادة) الاحياء الباقين ممن لهم صلة بالحادث بشكل او بآخر من الضرورات التاريخية التي يجب الاهتمام بها بصورة جدية!.. الثابت ان الرائد بهجت سعيد، من الضباط الاحرار كان مكلفًا صباح يوم 14 تموز/ يوليو 1958 ان يتوجه بسريته الى بيت نوري السعيد في منطقة كرادة مريم واعتقاله، والحق به المقدم وصفي طاهر لأنه سبق ان عمل مرافقًا للسعيد وعلى معرفة جيدة ببيته ولسبب غير معروف تمامًا تمكن نوري من الهرب في الساعة الخامسة والنصف بملابس النوم واستقل قاربًا كان راسيًا قرب مسناة داره المشرفة على النهر غير انه شاهد عددًا من الناس على الضفة المقابلة فعاد الى منزل الدكتور صالح مهدي البصام القريب من داره، ومن هناك تم هروبه عن طريق وضعه بالصندوق الخلفي لسيارة مرتضى البصام (شقيق صالح) الى بيت الحاج محمود الاسترابادي في الكاظمية. وفي اليوم التالي وجد نوري السعيد ان مخبأه في بيت الاسترابادي اصبح محفوفا بالمخاطر بعد ان اجرت السلطة تفتيشًا للدور القريبة مثل دور عبدالامير البصام ومحمد تقي اسد الله ورشدي الجلبي فقرر اللجوء الى مكان آخر،

بعيدًا عن الكاظمية اما ا نه آثر الاختباء في دار هاشم جعفر (شقيق ضياء جعفر) او دار الشيخ محمد العريبي، وكلا الدارين في محلة البتاويين فهذا امر لا نستطيع تفسيره الا باعتبار ذلك محطة وسطية للانتقال الى محل آخر ربما كان السفارة الامريكية في العلوية. وفي الساعة 2,45 من بعد ظهر يوم 15 تموز 1958 غادر نوري السعيد بيت الاسترابادي متنكرًا بعباءة نسائية و(بوشية) سوداء وضعها على وجهه بصحبة زوجة محمود الاسترابادي (بيبية بنت سيد علي القطب) عمرها 85 عامًا ومن صديقات اسرة نوري السعيد منذ اكثر من ثلاثين عامًا ورافقتهما (زهرة حيدر) عمرها 82 عامًا وتعمل خادمة في بيت الاسترابادي واستقل الجميع سيارة الاسرة شوفرليت سوداء، رقمها 1585 بغداد التي تعود للحاج محمود الاسترابادي وعمره 80 عامًا وقاد السيارة المدعو (كاظم علي زغير) عمره 22 عامًا، يعمل سائقًا للأسرة، وقد سارت السيارة سالكة الشارع الرئيسي في الكاظمية ثم طريق العطيفية فالجسر الحديدي فشارع (غازي) فشارع الشيخ عمر فساحة الطيران ثم شارع السعدون، ودخلت الشارع المقابل لمدرسة الشرطة والذي يؤدي الى ساحة النصر حتى وقفت بباب دار هاشم جعفر (محاضر المجلس العرفي). ولا صحة لما ذكرته اكثر الكتب من ان مظفر بن محمود الاسترابادي هو الذي قاد السيارة فالذي قادها كان السائق (كاظم علي زغير) ودخل نوري السعيد وبيبية القطب وزهرة حيدر الى بيت هاشم جعفر، وبقوا نحو 10 دقائق وخلال هذه الدقائق خرج (عمر) ابن هاشم جعفر واسرع الى وزارة الدفاع وقابل عبدالكريم قاسم واخبره بمكان نوري السعيد ويبدو ان ما قام به ابن هاشم جعفر كان لدفع اية شبهة تدور حول اسرته التي كانت على صلة حسنة بأسرة نوري السعيد بعد حملة اعتقال رجال العهد الملكي، وما ان علم السعيد بخروج ابن صاحب البيت ترك مع مرافقيه المنزل وتوجهوا الى بيت محمد العريبي القريب من المكان ويبدو انهم كانوا غير متأكدين من موضع بيت العريبي، فساروا على امل ان يجدوا من يدلهم عليه.

الان، لندع الدكتور اكرم فاضل يتحدث عن استطلاعه الميداني بصدد ذلك، فيقول: (..... توجهت الى ساحة النصر جاعلًا صيدلية الكندي عن يساري وولجت الزقاق المؤدي الى سوق البتاويين واهتديت الى حانوت الحلاق (ستار) حسب نصيحة الاستاذ انطوان قيصر الذي يسكن دارا قريبة من الحادث شاهدت عند الحلاق رجلا طويل القامة جالسا فقدمت له نفسي وقدم هو لي نفسه فاذا به المحامي الدركزلي، فاخذ بيدي الى زقاق آخر يقاطع السوق واراني موضع مقتل نوري السعيد.. ان نوري قد اوغل في السوق جنوبا ثم انحرف شمالًا للوصول الى دار محمد العريبي وحين عرفه اهل الدار اوصدوا الباب بوجهه، ويظهر انه كان يستقل سيارة سوداء مع السائق وبيبية زوجة الاسترابادي والخادمة، فاتجهوا بعدها الى فرع اخر ينصب في الشارع العام الذي تشغله حوانيت باعة الفواكه والخضراوات وقد ترجل هو وبيبية وفي هذه الاثناء مرقت سيارة معاون الشرطة وكادت تصدم نوري السعيد فالتصق بالجدار ولم يلحظ المعاون شيئا وكان على مقربة من ذلك المكان طفل عمره ست سنوات ترك دار اهله فاخذ ابوه العريف في القوة الجوية بالبحث عنه فوجد امامه شبحين ولمح رجلين عريضي المنكبين يتحامل على نفسه من التعب والحر وكانت تسير الى جانبه امرأة بدا التعب عليها كذلك ولكن العريف رأى برقعا على وجه احدهما هو عبارة عن (خاولي) فصحبه، في افادات المجلس العرفي كان نوري السعيد يغطي وجهه ببوشية سوداء.. فاذا هو وجها لوجه مع نوري السعيد، اعتقد ان احدهما او كلاهما لجأ الى الشتائم، ثم حدث الذي حدث في مقتل (الباشا) كما هو معروف وشائع بين الناس ولهذا حديث اخر.

مما لاشك فيه ان نور السعيد من الشخصيات السياسية العراقية التي يشهد لهم التاريخ لما سجله من مواقف سياسية عربية ودولية غيرت شيئا ما في ذاكرة الشعب في المنطقة، ولا يمكن إنكار الجهود والمحاولات

التـي بدلهـا مـن اجـل اقامـة الوحـدة مـا بـين الـدول العربيـة وحـل مشـكل العـراق مـع الـدول المجـاورة وتخلصـه مـن وضـع كان لا يحسـد عليـه كثيـرًا بالمقارنـة مـع جـواره البلـدان ومـا يمـر بـه مـن أزمـة تكـون الدولـة وسـيطرة القـوة الأجنبيـة الخارجيـة عليـه.

إلا أن وعي الشعب وتمسكه بمدركاته وقيمه السياسية ورفضه تماما التعامل مع المحتل يوضح اسباب فشل محاولات نوري السعيد وأسباب الكره او الحقد من قبل الشعب العراقي آنذاك. اذ ان الشعب لم يوافق على الطريقة التي لم تناسب قيمه ومدركاته الجماعية، وذلك وبالرغم من محاولات الانقسام والتشتت التي حاول المحتل ان يصنعها من اجل استغلال الضعف الداخلي في العراق واستمرار السيطرة على شعبه.

بالرغم من غير انه لا يمكننا إغفال خبرة نوري السعيد الناتجة عن توليه منصب رئاسة الوزراء في العراق 14 مرة. ان تجربة العمل السياسي لشخص نوري السعيد في القرن العشرين تشكل ظاهرة سياسية مثيرة للجدل. وما تركت من مواقف سياسية مهمة، تبين جهدًا من اجل التحرر والوحدة. وهو ما يمكن قياسه اليوم على ما يشهده العراق والواقع العربي من معاناة الاحتلال والطغيان والتدخل الخارجي في شؤون الأمة، ومجموعة من التحديات الاخرى التي تستدعي ضرورة اعادة النظر والنقد اتجاه تجربة نوري السعيد الخيارات السهلة التي تتناقض مع مدركات الأمة العربية من جهة اخرى. فمن المهم اعادة قراءة التاريخ والاستفادة من التجارب السابقة. إلا أنه هناك أشخاص لا يمكن ان ينسى التاريخ جهودهم الجبارة التي بذلت منهم وقوبلت بغدر ودسائس وفتن بعد أن افنوا سنوات اعمارهم في خدمة العروبة والجهاد من اجلها.

فجاءت محاولاته لإعطاء حلول واقعية كونها اصطدمت بقيم الشعب، يعني أنها لم تكن واقعية كانت تصطدم مع القيم المتجذرة في الشعب ما يجعلها قوبلت بالرفض والكراهية.

عبد السلام عارف: في مذكراته من زنزانة السجن إلى كرسي الرئاسة [6]:

هو ملف مذكرات عبد السلام عارف، رئيس الجمهورية العراقية، والضابط الإنقلابي الذي شارك في صياغة تاريخ العراق المعاصر عبر الانقلابات، فأسقط الملكية في انقلاب عنيف، وتتساءل عن أسباب سكوته عن مجزرة قصر الرحاب، كما تسرد تفاصيل الخلاف العنيف بينه وبين عبد الكريم قاسم. وتتحدث الحلقة كيف كانت التناقضات رفيقة درب عبد السلام عارف من زنزانة السجن إلى كرسي الرئاسة، فعبد الكريم قاسم الذي يرى عارف أنّه هو الذي أوصله إلى الحكم، قام بسجنه، والبعثيون هم من قام بإخراج عارف وتعيينه رئيساً للعراق، لكنّه سرعان ما انقلب عليهم وأنهى تنظيمهم العسكري خارج الدولة: الحرس القومي، وقد كتب عارف مذكّراته خفية في السجن، ثم أكملها بالتعاون مع الصحفي المصري علي منير في قصر الرئاسة، إلّا أن سقوط طائرته أثناء سفره إلى البصرة منعه من إكمالها بيده، لتصدر في الذكرى الأولى لوفاته.

لعل الشاب الذي يملؤه الطموح كان مصيبا في التحاقه بالكلية العسكرية التي تخرّج منها برتبة ملازم ثان عام 1941 لما يمتلكه من شجاعة وبأس لا يلين، لتقوده الأقدار شاء أم أبى إلى أن يكتب عنه ما يكتب ولو بعد زمن كرجل حرب وسياسة. عائلته القادمة من منطقة خان ضاري إحدى البلدات الواقعة غرب بغداد حطت رحالها في محلة سوق حمادة في جانب الكرخ القديمة، وما كانت لتعلم أنها على موعد مع ولادة رجلين سيحكمان العراق فيما بعد. ولد عبد السلام محمد عارف في 26 مارس/ آذار 1921 ونشأ في كنف أسرة مرموقة ذات نسب تعمل في تجارة الأقمشة، أكمل مراحله الدراسية وتخرج من ثانوية الكرخ عام 1938 شاقا طريقه

6))عبد السلام عارف: في مذكراته من زنزانة السجن إلى كرسي الرئاسة، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

بمزيد من الإصرار والتحدي. كان جده شيخًا لعشيرة الجميلة المعروفة، وخاله الشيخ ضاري المحمود أحد أبرز قادة ثورة العشرين ضد الاستعمار البريطاني آنذاك.

سماته الشخصية:

شخصيته التي جمعت بين البساطة والعفوية لم تخف جانبا آخر من الحزم والصرامة والخطاب الارتجالي الشعبوي الذي أثار حفيظة مناوئيه في أحيان كثيرة. وجاءت مشاركته في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 -التي عرفت بثورة مايو/ أيار التحررية، وانخراطه في حرب فلسطين ضد إسرائيل عام 1948، أكسباه مهارة وحنكة في مقارعة الخصوم والثبات حين البأس.

البدايات حضرت بعد فترة زمنية قليلة من نجاح الحركة الانقلابية لتنظيم الضباط العراقيين أو "الأحرار" في الإطاحة بنظام الحكم الملكي وتحويل نظام الحكم في العراق إلى النظام الجمهوري في عام 1958، بدأت بوادر الخلافات بين الأحزاب والقوى السياسية والضباط الوطنيين أو "الأحرار"، حيث كانت القوى القومية بزعامة العقيد عبد السلام عارف وحزب البعث تنادي بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة. في المقابل، وفي محاولة لخلق حالة من التوازن السياسي، حاول الحزب الشيوعي العراقي الذي كان معارضًا لفكرة الوحدة إلى طرح فكرة التعاون مع الجمهورية العربية المتحدة في المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية بدلًا من الوحدة السياسية والعسكرية الشاملة.

تدريجيًا ساءت علاقات عبد الكريم قاسم مع بعض زملائه من أعضاء تنظيم الضباط الوطنيين أو الأحرار ثم تعكرت علاقته مع التيارات الوحدوية والقومية التي لعبت دورًا فاعلًا في دعم حركة سنة 1958. أما التيارات المتصارعة في الحزب الشيوعي العراقي فكانت طامحة للتحالف

مع العميد عبد الكريم قاسم والتي كانت تمتد علاقتها معه منذ أمد بعيد حيث اعتقد قاسم أن بعض حلفائه الشيوعيين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الوثوب إلى الحكم، وخاصة بعد تزايد نفوذ الحزب الشيوعي بعد ذلك الشعار التي كان يردده الكثير من الشيوعيين ومؤيدي الحكومة في إحدى المسيرات: "عاش الزعيم عبد الكريم، حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيم" وجعلته يصمم منذ ذلك اليوم على تحجيم التيار الشيوعي المتحفز لقلب نظام الحكم وتقليم أظافره فقام بسحب السلاح من ميليشيا الحزب واعتقال معظم قادتها إلا أنه أبقى على التيار الموالي له وكان من قياداته العميد الطيار جلال الدين الأوقاتي قائد القوة الجوية والمقدم فاضل عباس المهداوي ابن خالة قاسم. وتوالت التغييرات السياسية في العراق في تلك المرحلة الحرجة بسرعة بالغة وانتهى حكم عبد الكريم قاسم في 8 فبراير/ شباط من سنة 1963 بإعدامه من خلال محكمة صورية عاجلة في دار الإذاعة في بغداد وسارع قادة الحركة إلى عرض جثته على شاشة التلفزيون في نفس اليوم.

نحو وضع الحقائق على وفق تفسير المصطلحات أكاديميًا ومعجميًا:

هنالك تعريفان ومفهومان للثورة، التعريف التقليدي القديم الذي وضع مع انطلاق الشرارة الأولى للثورة الفرنسية، وهو قيام الشعب بقيادة نخب وطلائع من مثقفيه لتغيير نظام الحكم بالقوة. وقد طور الماركسيون هذا المفهوم بتعريفهم للنخب والطلائع المثقفة بطبقة قيادات العمال الذين أسموهم البروليتاريا. أما التعريف أو الفهم المعاصر والأكثر حداثةً فهو التغيير الذي يحدثه الشعب من خلال أدواته "كالقوات المسلحة" أو من خلال شخصيات تاريخية لتحقيق طموحاته لتغيير نظام الحكم العاجز عن تلبية هذه الطموحات ولتنفيذ برنامج من المنجزات الثورية غير الاعتيادية. والمفهوم الدارج أو الشعبي للثورة فهو الانتفاض ضد الحكم الظالم.

أما الانقلاب فهو تحرك أحد العسكريين للاستيلاء على السلطة لتحقيق طموحات وأطماع ذاتية بغية الاستفادة المادية من كرسي الحكم. تداخلت مجموعة من العوامل الداخلية والإقليمية وهيأت الظروف المناسبة للإطاحة برئيس الوزراء العميد عبد الكريم قاسم وأركان حكمه، فيرى بعض المؤرخين أن من أسبابها ما وصفوه بتخبط وفردية قاسم والأخطاء التي ارتكبها بإعدام القادة والوطنيين وأعمال العنف التي قامت بها المليشيات الشيوعية المتحالفة مع قاسم، والخلاف مع المشير عبد السلام عارف الذي كان قيد الإقامة الجبرية، علاوةً على تصريحات قاسم المتكررة عن دعمه للعميد السوري عبد الكريم النحلاوي وللعقيد موفق عصاصة، بغية القيام بانقلاب لغرض انفصال الشطر السوري الذي كان متوحداً مع مصر في إطار الجمهورية العربية المتحدة.

كما أن لعبة السياسة الدولية ومصالحها كان لها دور في تشجيع أو تأييد الخصوم أو جني ثمار نزاعات الأطراف المتصارعة، حيث رأت الدول الكبرى وإسرائيل أن تصرفات عبد الكريم قاسم لا تخدم استراتيجياتها في المنطقة التي كانت تحاول إحكام الطوق على الاتحاد السوفيتي ومنظومة حلف وارسو بعدد من الدول المؤيدة لسياساتها، فكان قاسم يطمح للتقرب من الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو حبًا بالتجربة الاشتراكية وعقد معاهدة دفاع إستراتيجي مشترك معه مما سيسبب وفقا للإستراتيجية الأميركية والعالم الغربي بتقرب الاتحاد السوفيتي مما اصطلح عليه "بالتقرب من المياه الدافئة" أي مياه الخليج العربي الغني بالثروة والتقرب من الشرق الأوسط المثقل بالمشاكل والصراعات التي خلفتها دول الاستعمار القديم، فرنسا وبريطانيا، وما تسببت به من كارثتين في المنطقة أولهما شطر الولايات العثمانية العربية إلى دول مستقلة على وفق معاهدة سايكس – بيكو، والإسهام بتأسيس دولة "إسرائيل في فلسطين" – وبين السيطرة الأميركية المتنامية في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية وتحديدا

بعد حرب السويس أو العدوان الثلاثي على مصر، ناهيك عن الصراع بين الحكام الموالين لهاتين الكتلتين والحكام الثوريين الجدد الذين يطمحون للتحرر والثورة وإعادة توحيد أوصال الوطن العربي.

بدأ الصراع بين قاسم وفرقاءه من أعضاء تنظيم الضباط الوطنيين أو "الأحرار" والشخصيات السياسية الفاعلة في الساحة السياسية من مختلف التيارات بسبب بعض الإجراءات التي اتخذها عبد الكريم قاسم منها تفرده في السلطة وفرضه لهيمنة العسكر والحزب الشيوعي على الوزارة والسياسة العراقية، حيث منح صلاحيات واسعة للتيارات اليسارية من الشيوعيين المعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية في القانون العراقي والذين كانوا وراء إصدار قانون الأحوال الشخصية الذي شجبته المراجع الدينية، وكذلك ابتعاد قاسم عن ما اتفق علية فيما سمي بالميثاق الوطني لتنظيم الضباط الوطنيين "أو الأحرار" لانضمام العراق للاتحاد العربي المسمى "الجمهورية العربية المتحدة"، وبدلا عن ذلك دخل قاسم في عداء مع أغلب الدول العربية خصوصا المحيطة بالعراق وتوج إجرائاته بإلغاء عضوية العراق من الجامعة العربية. وكذلك الاضطرابات التي حدثت ابان حكم قاسم بسبب حملات إعدام بعض قادة تنظيم الضباط الوطنيين والأحداث المؤسفة التي قامت بها المليشيات الشيوعية في الموصل وكركوك، علاوةً على انتفاضة الأكراد في سبتمبر/ أيلول من عام 1961 وضربهم بقسوة، مما أدى إلى إضعاف أكثر للهيمنة المركزية لقاسم على حكم العراق.

كما كانت لطلب قاسم في ضم الكويت للعراق سنة 1961 أثره في زعزعة السياسة الخارجية وإظهاره بمظهر المتخبط. كان تنظيم الضباط الوطنيين عبارة عن خلايا وتجمعات مستقلة توحدت عام 1957 وتأسست أول خلية عام 1949 بعد حرب فلسطين، أسسها العقيد رفعت الحاج سري، وكان قاسم ينتمي إلى خلية في معسكر المنصورية في ديالى جلها من الضباط

ذوي الأصول الفلاحية أو الفقيرة ومن المنتمين للتيارات الشيوعية في زمن كانت الطبقة والبيوت العائلية والقبلية تلعب دورا وتظهر هيمنة في المجتمع. فتأثر قاسم بالتجربة الاشتراكية والشيوعية التي لا تعير اهتماما للتطلعات الدينية ولا القومية.

وفي الطرف الآخر كان أغلب تنظيم الضباط الوطنيين ينتمون إلى حركات التحرر التي تنادي بالوحدة العربية. لاسيما بعد تأجيج المشاعر القومية على أعقاب ثورتي رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز عام 1941 وإنقلاب يوليو/ تموز في مصر وما تبعها من إجراءات رأت فيها الجماهير ضرب للمصالح الاستعمارية كتأميم قناة السويس وقيام الاتحاد العربي المسمى بالجمهورية العربية المتحدة.

تحول صراع الأيديولوجيات بشكل تدريجي إلى صراع مسلح بين الفرقاء، وبدأت سلسلة من المحاولات من الجانبين لفرض المواقف فبعد أن أحس بعض رفاق سلاح عبد الكريم قاسم في تنظيم الضباط الوطنيين ومعهم شخصيات من التيار القومي وحزب البعث بان عبد الكريم قاسم يمارس معهم عملية اقصاء وما اسموه بعدم تنفيذه لما اتفق عليه قبل حركة 14 يوليو/ تموز وانفراده بالحكم، شجع ذلك عضو التنظيم العقيد عبد الوهاب الشواف بالقيام محاولة انقلاب عسكرية عرفت باسم حركة العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل في 8 مارس/ أيار من سنة 1959، أو ثورة الشواف، والتي أخمدها العميد عبد الكريم قاسم بقسوة حيث قتل وأعدم منفذيها. وتلا ذلك استهداف قاسم من قبل حزب البعث في 7 أكتوبر/ تشرين الأول من سنة 1959 حيث تعرض عبد الكريم قاسم إلى محاولة اغتيال سببت له إصابات بليغة في كتفه.

بعد سلسلة من الاعتقالات والمداهمات أطلق قاسم شعاره: "عفا الله عما سلف". وفي تاريخ تلك المرحلة وقعت ثلاثة أحداث مثيرة للجدل، وهي ما أشيع

من قبل حكومة عبد الكريم قاسم عن اكتشاف محاولات قلب نظام الحكم والتي لم يتأكد من صحتها بالوثائق أثناء المحاكمات التي عُقدت بشأنها ولا بعد ذلك إضافة إلى تقديم المشتكين لوثائق أخرى تثبت برائتهم مما أثار سخط الرأي العام في حينه حول ما أسموه الدواعي وراء تلفيق التهم لقادة حركة 14 يوليو/ تموز أو الرموز الوطنية الأخرى.

الحدث الأول الذي أثار جدلاً كبيرًا امام الراي العام هو ما أشاعته الحكومة بأن عبد السلام عارف حاول اغتيال عبد الكريم قاسم والتي حدثت أثناء اجتماع اعتيادي ضم قاسم وعارف وبعض المسؤولين فحين همّ عارف بالجلوس اخذ يعدل ملابسه ونطاقه العسكري المتضمن مسدسه. وفي تلك الفترة كان قاسم ممتعضًا من عارف بسبب ازدياد شعبيته لدوره الرئيس في حركة 14 تموز من جهته وزياراته للمحافظات وإلقاءه للخطب الارتجالية عن دوره في (الثورة) وضرورة قيام الوحدة للحفاظ على الثورة من التهديدات البريطانية والإسرائيلية. والتي أثارت امتعاض رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، لا سيما بعد زيارة عارف لسوريا والتي كانت متوحدة مع مصر في الجمهورية العربية المتحدة، حيث بدأت شعبيته محليا وعربيا تزداد بشكل ملحوظ، من هنا ازدادت مخاوف قاسم الذي اعتقد أو استغل تلك الفرصة للتخلص من عارف وإبعاده عن الوزارة ومركز القرار. حيث نفى عارف التهمة المنسوبة إليه واستشهد بشهود من الحاضرين في الاجتماع، حيث اكتفى قاسم باعتقاله على عجل ثم أصدر أوامره بتعيينه سفيرا في ألمانيا كونه درس وعاش في ذلك البلد قرابة ست سنوات.

بعد عودة عارف من ألمانيا على أثر البرقية التي أرسلتها له عائلته لضرورة مجيئه لمرض والده العضال والذي توفي على اثره، استثمر قاسم هذه الحادثة وقام باعتقال عبد السلام عارف وتقديمه أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة على الرغم من تقديمه للبرقية وشهادة الشهود من عائلته والتقارير الطبية التي قدمتها عقيلته وأخوه عبد السميع للمحكمة، إلا أن الأخيرة قضت

بإعدامه، وظل معتقلا في السجن العسكري رقم واحد بانتظار يوم إعدامه لمدة سنتين. وبعد حادثة فشل الوحدة بين مصر وسوريا والتي صرح قاسم بأنه دعم قادة الانفصال فيها، العميد عبد الكريم النحلاوي والعقيد موفق عصاصة، "لتحرير سوريا من الهيمنة المصرية".

وجد رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم بأن الخطر قد زال فأصدر عام 1961 أمراً دون الرجوع للمحكمة بتحويل حكم إعدام عارف إلى المؤبد بصيغة الإقامة الجبرية، حيث بقي عبد السلام عارف معتقلًا في منزله حتى قيام حركة 8 فبراير/ شباط من عام 1963م، ولم يخلي سبيله رغم مطالبة زملاءه وعائلته ورفاق السلاح. رشيد عالي الكيلاني باشا قائد ثورة 1941 ضد الإنكليز. أما الحدث الثاني فهو زج اسم عميد أركان الحرب ناظم الطبقجلي مع المتهمين بحركة الشواف، إلا أن المحكمة لم تستطع إثبات التهمة المنسوبة إليه بالوثائق.

لم يكن عبد السلام عارف هو الوحيد الذي يخشى منه عبد الكريم قاسم، بل كان يخشى من أغلب أعضاء تنظيم الضباط الوطنيين حيث احتج كل من العميد ناظم الطبقجلي والعقيد عبد الوهاب الشواف والعقيد رفعت الحاج سري على إبعادهم من الواجهة السياسية والوزارة أو من عدم تشكيل المجلس الوطني لقيادة الثورة وتعليق انتخاب رئيس للجمهورية، حيث وزعهم على المعسكرات في المحافظات البعيدة عن بغداد.

بعد اعتقال الطبقجلي وتصريحه امام شاشات التلفزيون بأنه يتحدى الحكومة بان تثبت التهمة عليه وإنه قد تم تعذيبه واهانته، تم إعدامه مما أدى إلى سخط الراي العام. والحدث الثالث الذي شغل الرأي العام فهو ما أشاعته الحكومة بان وراء عودة الشخصية الوطنية العراقية رشيد عالي الكيلاني باشا رئيس الوزراء الأسبق وقائد ثورة مايو/ أيار عام 1941 هو التخطيط لمحاولة انقلابية في عام 1959 وقد نفى الكيلاني التهم بسخرية قائلا: "لم انتظر يوما قط وأنا في المنفى بعيداً عن الوطن، أن يقدم لي

أحد مكافأة على ما قمت به من دور وطني في سبيل تحرير العراق، وقد استبشرت بقيام الثورة وعدت لبلدي الحبيب، ولم أتوقع ان أكافأ بهذه الطريق وقد بلغ بي العمر 84 عامًا". تم تقديم الكيلاني إلى المحكمة العليا الخاصة والتي حكمت عليه بالإعدام بالرغم من نفيه لهذه المزاعم مطالبا بتقديم وثائق تثبت هذه التهمة مما أدى إلى عدم تنفيذ الحكم ثم أطلق سراحه فيما بعد ونفي إلى لبنان حيث لاقته المنية عام 1965 في بيروت.

أدى سخط الشارع لما اعتبره الرأي العام محاولة قاسم وحكومته وحلفائه من الشيوعيين إلى ابعاد جميع الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في الشارع عن الواجهة السياسية بتلفيق التهم لها أو ابعادها عن المسرح السياسي بنقلها إلى وحدات عسكرية بعيدة عن بغداد كما حدث لقادة تنظيم الضباط الوطنيين، وما عزز هذا الاعتقاد حول الشكوك بصحة هذه التهم هو اعتقاد بعض الباحثين والمؤرخين حول كونهما قصتين ملفقتين لغرض التصفية السياسية حيث لم يتم العثور على أي وثيقة تثبت تورط عارف والكيلاني والطبقجلي بأي محاولة انقلابية لا في حينها ولا بعد نشر الوثائق ومحاضر جلسات مجالس الوزراء بعد احتلال بغداد عام 2003.

أجمل قادة حركة 8 شباط/ فبراير لعام 1963 من خصوم ومعارضي قاسم عددًا من العوامل التي دفعتهم للقيام بالحركة، منها أن حركة أو انقلاب يوليو/ تموز 1958 هي عمل جماعي منظم جاءت وليدة حتمية للظروف الموضوعية التي كان يمر بها العراق والمنطقة، فقام بها تنظيم الضباط الوطنيين الأحرار أو جزء كبير من قياداته وقواعده ولم يقم بها العميد عبد الكريم قاسم بمفرده بل إن دوره فيها كان ضمن صفحة التخطيط والإشراف ولم يسهم في صفحة العمليات التنفيذية المباشرة. إن جميع ما أصدرته الثورة عند انطلاقتها الأولى من قرارات وطنية وتشريعات ومنجزات جاءت "وليدة العمل الجماعي" المثمر لقادتها الوطنيين ولم

تكن من إنجازات عبد الكريم قاسم لوحده. إعدام الطبقجلي وسري. يرى قادة حركة 8 شباط 1963 أن عبد الكريم قاسم تحول من زعيم للثورة إلى "دكتاتور" تفرد بالسلطة، فاستحوذ على مركز صناعة القرار وبدأ بجمع الصلاحيات بيده مجرداً شيئاً فشيئاً الصلاحيات من زملاءه. فأصبح هو رئيس الوزراء ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة.

لم يمنح مجلس السيادة الصلاحيات وأحاله إلى واجهة شكلية ليس بيدها لا سلطة تنفيذية ولا تشريعية، كما وقف حائلاً أمام انتخاب رئيس الجمهورية، وبقي المنصب معلقاً في عهده. كما عطل تأسيس المجلس الوطني لقيادة الثورة كما كان متفقاً عليه في تنظيم الضباط الوطنيين الأحرار وحل مجلسي النواب والأعيان للحكم الملكي، ولم يفسح المجال لانتخاب مجلس نواب جديد. وعند بدء الثورة حين كان العمل في القيادة جماعيا قبل تفرده بالسلطة سمحت وزارة الداخلية التي كان عبد السلام عارف وزيرا لها بتأسيس بعض الأحزاب مثل الحزب الإسلامي العراقي وحزب الدعوة الإسلامية، إلا أن عبد الكريم قاسم وبعد تفرده ألغى هذه الأحزاب ولم يفسح المجال لعمل أحزاب جديدة سوى الحزب الشيوعي العراقي الذي شاركه في السلطة.

يرى قادة الحركة أيضًا ان عبد الكريم قاسم أصدر أحكام إعدام وسجن جائرة بغية تصفية قيادات حركة عام 1958 من زملاءه وأعضاء تنظيم الضباط الوطنيين وشملت التصفيات أي شخصية وطنية يعلو صوتها على صوت عبد الكريم قاسم، فلفق التهم لبعضهم وزجهم بالسجون وأعدم البعض الآخر مستغلا حركة عبد الوهاب الشواف الانقلابية كذريعة لهذه التصفيات، أما الذين قاموا فعليًا بالحركة فقد تم قتلهم مباشرة بالقصف المباشر بالطائرات، والبعض الآخر أحيلوا إلى المحكمة الخاصة، "محكمة الشعب"، حيث تم زج الكثيرين ممن ليس لهم علاقة بحركة الشواف

وتعذيبهم ثم إعدامهم. ومن أبرز المعدومين العميد الركن ناظم الطبقجلي والعقيد رفعت الحاج سري ومجموعة من رفاقهم، وإصدار أحكام الإعدام التي لم ينفذها بسبب الضغوطات الشعبية بحق كل من الشخصية الوطنية رشيد عالي الكيلاني باشا والعقيد الركن عبد السلام عارف، وكذلك رئيس الوزراء السابق أحمد مختار بابان. المقدم فاضل عباس المهداوي رئيس المحكمة.

وصفت قيادات الحركة "محكمة الشعب" المشهورة باسم "محكمة المهداوي" بكونها محكمة "هزيلة"، وكانت تلك المحكمة العسكرية الخاصة العليا تقوم بمحاكمة أركان النظام الملكي وأيضا جيء بالكثير ممن ليس لهم علاقة بمركز القرار وأعدم الكثيرين مجرد لأنهم كانوا مسؤولين في النظام الملكي. يرى المعارضون لطريقة سير تلك المحكمة أنها وبسبب رئيسها المقدم فاضل عباس المهداوي وادعائها العام العقيد ماجد محمد أمين كانت منبرا وواجهة إعلامية للحكومة واستخدمت فيها وسائل تعذيب وإهانة الموقوفين وكثيرًا ما كان رئيس وأعضاء المحكمة ينحدرون بالسباب والشتائم وتلفيق التهم بالشبهة وأثناء البث المباشر على شاشات التلفزيون.

من وجهة نظر التيار المساند للإطاحة بقاسم فإن عبد الكريم قاسم فسح المجال للحزب الشيوعي ومليشياته بالعبث بأمن الدولة والمواطنين وتمكينهم من المناصب الهامة في الوزارة والجيش ومستشارية لأخر يوم في نظام حكمه مثل العميد الطيار جلال الدين الأوقاتي الذي قُتل صباح يوم الحركة وطه الشيخ مدير العمليات في وزارة الدفاع وفاضل المهداوي رئيس المحكمة الخاصة الذين أعدما معه. كما قامت المليشيات الشيوعية المسماة بالمقاومة الشعبية بارتكاب أعمال عنف مؤسفة كقتل وتعذيب معارضيهم بالشوارع وتعليق الكثيرين منهم على أعمدة الكهرباء، والقيام بمداهمة واحتلال المنازل والمؤسسات الحكومية والمعسكرات والعبث بها بمساعدة

العامة من الدهماء كما حدث من مجازر وتجاوزات على حقوق الإنسان في الموصل وكركوك. كما لعبوا بسياسة الدولة الداخلية والخارجية ومنعوا أي تقارب مع الدول العربية أو تحقيق أي وحدة عربية والتي كانت حلم الجماهير التي تعتبرها ضرورة للوقوف بوجة القوى الكبرى للنيل من الثورة.

هناك قناعة راسخة من قبل المؤيدين للإطاحة بقاسم بأن سياسة العراق في عهده عزلت العراق عن محيطة الإقليمي العربي بسبب عدم إيمانه بالوحدة العربية ووقوفه ضد الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة بعد زيارة وفد من التنظيمات الشعبية للجمهورية العربية المتحدة برئاسة أعضاء من حزب البعث للتهنئة بالثورة ودعوة قيادة العراق للانضمام للوحدة، كما شكلت محاولته بضم الكويت عسكريا عام 1961 بعيدًا عن التنسيق الوحدوي أثرًا سلبيًا على علاقاته العربية التي ازدادت سوءًا بقطع العراق لعلاقاته الدبلوماسية مع العديد من الدول العربية مثل مصر وسوريا والكويت والسعودية والأردن، وانتهى به الأمر إلى الغاء عضوية العراق من الجامعة العربية أواخر عام 1961. بالإضافة إلى القوى القومية العربية وحزب البعث التي ناهضت سياسات عبد الكريم قاسم فقد واجه قاسم انتقادات من المراجع الدينية المحافظة التي لم تكن مع بعض القرارات التي كانت تُعتبر تغيرات جذرية سريعة نحو العلمانية في دولة لا تزال تتمسك بالعرف الديني والعشائري ومن أشهر هذه القرارات قانون الأحوال الشخصية التي ضمنت للمرأة حقوق واسعة بعيدة عن التشريع الإسلامي ومستوحاة من الفكر الماركسي وقانون الإصلاح الزراعي حيث انتزع الأراضي العقارية التي كانت للملاكين وشيوخ العشائر والاقطاعيين ووزعها على الفلاحين والمهاجرين من الشروقيين والتي أصدرت المراجع الدينية الشيعية، بضمنها الحوزة العلمية الشيعية، والمراجع السنية بيانات شجبها ومنافاتها للشريعة الإسلامية.

يُضاف إلى هذه الانتقادات استغلاله لمنصبه بتولية المناصب الهامة لأصدقائه وأقاربه دون وازع من الكفاءة أو المهنية كما ميز بعض أفراد عائلته بمنح أشقائه وشقيقاته الدور السكنية الراقية مجانا مع كبار القادة العسكريين وجعل أخيه الكاسب المعدم المتنفذ الملقب "بالبرنس" حامد قاسم مشرفًا على توزيع أراضي الإصلاح الزراعي على الفلاحين والتي جمع منها أموالًا طائلة أصبح على إثرها من كبار الأثرياء، وابن خالته المقدم فاضل المهداوي الذي عينه بمنصب رئيس المحكمة العسكرية العليا الخاصة.

كذلك فهو لم يؤمم نفط العراق في ظروف مواتية بعد تعالي الصيحات المنادية بالتأميم وذلك بعد تأميم إيران "مصدق" للنفط ومصر "عبد الناصر" لقناة السويس. واكتفى كبديل بتبني اقتراح وزارة النفط بإصدار القانون رقم 80 الذي فسح المجال للعراق باستكشاف حقول نفطية جديدة. أما حقول العراق النفطية والتي لم يكن مكتشفا منها سوى عدد قليل، فبقيت بيد الشركات الاستثمارية الأجنبية التي كان لها نصيب الأسد من عوائد تصدير النفط بحسب الاتفاقيات الجائرة المبرمة في نهاية العهد العثماني وبداية تأسيس الدولة العراقية، حيث كانت تدفع تلك الشركات ما مقداره "شلن" فقط أي درهم عن كل برميل نفط. فالعراق كان فقيرا بسبب هيمنة شركات النفط من جهته وبسبب الاستثمار المحدود للحقول البسيطة يوم ذاك.

يُنتقد قاسم أيضاً بسبب ميوله الطائفية والعرقية بتفضيل طائفة على أخرى وقومية على أخرى، حيث استغل قانون الإصلاح الزراعي وانتزع الأراضي العقارية التي كانت للملاكين وشيوخ العشائر والاقطاعيين ووزعها على الفلاحين والمهاجرين الشروقيين وذلك لانتماء أسرته لهذه الفئة. كما دعم المهاجرين الذين كانوا يعملون عبيد لدى الإقطاع وساواهم بالفلاحين

العرب العراقيين ووزع لهم الأراضي الزراعية والدور السكنية ليضمن دعمهم له. كما ألب العشائر العربية في الموصل وكركوك لاضطهاد الأكراد على إثر عدم اتفاقهم معه وأرسل القطع العسكرية للنيل منهم.

يبقى عارف يصنفه المؤرخون من جيل الضباط الثوريين الذين تصدوا لعمليات التغيير باستخدام الجيش على غرار ما جرى في سوريا من انقلاب حسني الزعيم، أو على شاكلة الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالملك فاروق في مصر. ويصفه أستاذ العلوم السياسية مؤيد الونداوي بالضابط المغامر الذي لا يأبه بالخواتيم مستشهدا بقيادته لقطعات الجيش عندما كان آمرا للواء العشرين، وإطاحته بالنظام الملكي القائم حينذاك.

رسالته الشهيرة لوالده -التي طلب فيها رضاه والدعاء له بتحقيق النصر أو الشهادة في حال وفاته- تنم عن إرادة عنيدة في تحدي المألوف وعدم الركون لما هو قائم حيث أذاع عارف بنفسه البيان الأول من مقر الإذاعة صبيحة 14 يوليو/ تموز 1958.

وفاة غامضة:

توفي عارف في 13 أبريل/ نيسان 1966 إثر سقوط طائرته الخاصة بمنطقة القرنة بعد عودته من زيارة لمحافظة البصرة جنوب العراق حيث أمضى يومه كاملًا في ضيافة المدينة، وقرر العودة عند المساء رغم تحذيرات الطاقم المرافق له من خطورة الطيران ليلًا.

التحقيقات كشفت في حينها أن الحادث سببه عاصفة رملية، لكن فريق التحقيق الذي أرسلته الشركة الروسية المصنعة للطائرة الرئاسية أكدّ خلوّها من أي عطل فني ليسدل الستار على حادثة لا تزال غامضة حتى اليوم. ثم تسلم شقيقه الأكبر عبد الرحمن إدارة البلاد بعد وفاته مكملًا حقبة أخرى من حكم ضابطين دخلا عالم السياسة والحكم فخرجا منه ببزة الرؤساء.

محمد مهدي صالح[7]: درء المجاعة عن العراق/ معركة الحياة ضد الموت[8]:

يقدّم الدكتور محمد مهدي صالح الراوي، وزير التجارة العراقي السابق، في كتابه الجديد «درء المجاعة عن العراق مذكراتي عن سنين الحصار 1990 – 2003» (الذي صدر عن دار «منتدى المعارف»)، رواية مفصلة عن الجهود التي قام بها على رأس وزارته للتصدي للعقوبات التي فُرضت على العراق في أعقاب غزوه الكويت عام 1990 واستمرت حتى الغزو الأميركي للعراق عام 2003. لكن الكتاب لا يتوقف فقط عند الجانب الاقتصادي البحت للعقوبات، والوسائل التي لجأ إليها العراقيون للالتفاف عليها خلال «سنوات الحصار» الطويلة، بل يقدّم أيضاً صورة لما كان يدور سراً ويُحكى به همساً أحياناً من نقاشات وخلافات بين أركان حكم الرئيس الراحل صدام حسين.

تحدث الراوي بصراحة لافتة عن الخلافات التي كانت تعصف بنظام حكم صدام، وجزء منها مرتبط بالفريق حسين كامل زوج ابنة الرئيس العراقي قبل انشقاقه على عمّه عام 1995، وينقل عن صدام قوله في

---

(7) محمد مهدي صالح الراوي: سياسي عراقي سابق شغل منصب وزير التجارة منذ عام 1987 حتى احتلال العراق عام 2003. درس في جامعة بغداد للفترة 1963–1967 وحصل على شهادة البكالوريوس، فعمل مدرسا في ثانوية الكفل في محافظة بابل للفترة 1969–1972، ثم التحق بدراسة الماجستير سنة 1972 وحصل على الشهادة سنة 1974. سافر إلى المملكة المتحدة 1975 لدراسة الدكتوراه في جامعة مانشستر وحصل عليها سنة 1978، ثم استمر في دراسة ما بعد الدكتوراه. عاد إلى العراق وعمل مديرا عاما في وزارة التخطيط ومحاضرا في جامعة بغداد حتى عام 1981. بعدها شغل منصب مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الاقتصادية، ورئيس ديوان الرئاسة حتى 4 آب 1987، حيث عين وزيرا للتجارة، واستمر في هذا المنصب حتى احتلال العراق سنة 2003. كما شغل منصب وزير المالية بالوكالة للفترة 1989–1991. اعتقلته قوات الاحتلال الأمريكية في 23 نيسان/ أبريل 2003 حيث كان تسلسله 35 في قائمة بطاقات لعب العراقيين الأكثر طلبًا، وكان مسجونًا مع مجموعة صنفها «مجموعة أسلحة الدمار»، ومعه فيها طارق عزيز وعبد التواب الملا حويش وعامر السعدي وعامر محمد رشيد وهمام عبد الخالق ومحمود فرج وحسام محمد أمين ومحمد فرج، أفرجت عنه الحكومة العراقية في 18 آذار/ مارس 2012 لعدم ثبوت أي تهمة ضده. وفي يوم 1 كانون الأول/ ديسمبر سنة 2020، رفعَ مجلس الأمن اسمَ محمد مهدي من قائمة المطلوبين. وذكرت بعد المصادر عن ترشيح قائمة متحدون له لشغل منصب محافظ الأنبار لكنه رفض المنصب، فيما نفى بعض السياسيون هذا الخبر. بعدها عاش في الأردن، وعمل أستاذًا في الجامعة الأردنية، في كلية الأمير الحسين بن عبد الله الثاني للدراسات الدولية ويشغل منصب ممثل قسم التنمية الدولية في مجلس الكلية، علمًا أنه بدرجة أستاذ مساعد وحاصل على شهادة الدكتوراه من بريطانيا من جامعة مانشستر. صدر لمحمد مهدي صالح كتاب مذكراته لسنوات الحصار الاقتصادي التي بدأت بعد احتلال دولة الكويت سنة 1990، وذكر الوزير في كتابه الوسائل التي اتخذها للتصدّي للعقوبات التي فُرضت على العراق من سنة 1990 حتى سنة 2003، اسم الكتاب (درء المجاعة عن العراق مذكراتي عن سنين الحصار 1990 – 2003)، ومن تلك الوسائل توزيع حصة تموينية.

(8) محمد مهدي صالح، درء المجاعة عن العراق.. مذكراتي عن سنين الحصار، ط: الدار الاهلية، عمّان، 2019.

أحد الاجتماعات لحسين كامل الذي كان رئيساً لهيئة التصنيع الحربي: «صواريخك لا قيمة لها إذا جاع شعب العراق».

عمل الراوي في ديوان الرئاسة العراقية منذ العام 1982، وكان، كما يقول، على «تواصل مباشر» في العمل مع صدام حسين على مدى سبع سنوات، ولغاية تعيينه وزيراً للتجارة عام 1987. بعد الغزو الأميركي عام 2003، اعتُقل الراوي في سجن كروبر وكان يحمل الرقم 35 على لائحة «المطلوبين» الشهيرين للأميركيين من قادة النظام المنهار. ظل محتجزاً حتى العام 2012، وهو يعيش حالياً في الأردن. «الشرق الأوسط» تنشر، اليوم وغداً، مقتطفات من كتاب الراوي قبل صدوره:

الرئيس علي صالح لصدام: الحرب واقعة والهدف تدمير الجيش العراقي:

يكتب الراوي في كتابه «درء المجاعة عن العراق»: « في فترة حكم الرئيس الراحل عبد الرحمن عارف تمّ قطع العلاقات الكاملة مع الولايات المتّحدة الأميركية لمساندتها العدوان الإسرائيلي عام 1967 في احتلاله لمزيد من الأراضي العربية (الضفة الغربية وسيناء). وبقيت تلك العلاقة مقطوعة بعد ثورة يوليو (تموز) عام 1968. وشارك الجيش العراقي بثقل كبير في حرب 1973 واستمرّت العلاقات مقطوعة مع أميركا لغاية عام 1982 حيث زار دونالد رامسفيلد بغداد مبعوثاً من الرئيس الأميركي رونالد ريغان. عرض في اللقاء، كما ذكر في كتابه (المعروف وغير المعروف)، وأيّده سكرتير الرئيس -آنذاك- حامد يوسف حمادي كما أبلغني في الزنزانة التي كنّا أنا وهو معتقلين فيها بعد احتلال العراق، في مقترح مدّ أنبوب للنفط عن طريق الأردن إلى ميناء العقبة، وإنشاء مصفى. وسأل الرئيس الراحل صدام حسين رامسفيلد فيما إذا كانت أميركا ستقدّم ضمانات بعدم تعرّض هذا المشروع لعدوان إسرائيلي، ولكن المبعوث الأميركي لم يعطِ أي ضمانات،

وترك الموضوع الرئيس، ولم يطلب الرئيس الراحل -كما يقول رامسفيلد- أي مساعدة من أميركا في الحرب مع إيران بعد مرور ثلاث سنوات على اندلاعها، والتي كان يتوقّع رامسفيلد أن يطلبها الرئيس العراقي الراحل. ولكن كانت الزيارة تمثّل بداية فتح علاقات تجارية ومن ثمّ دبلوماسية بين البلدين».

أُعيدت العلاقات الدبلوماسية بالفعل عام 1986، ولكن سرعان ما انهارت بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية. يقول الراوي: «في غمرة احتفالات الشعب العراقي بالنصر على إيران وافق مجلس النواب الأميركي، وبضغط من اللوبي الصهيوني المعادي للعراق، على فرض عقوبات على العراق في 22-9-1988 وذلك بعد خمسة وأربعين يوماً من توقّف الحرب. وتمّ إقرار مشروع فرض حصار أحادي الجانب من الولايات المتّحدة على العراق بموجب لائحة التحريم (الإبادة الجماعية لعام 1988). ونصّ مشروع القرار على إدانة العراق باستخدام الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد».

يتحدث الراوي عن قوة العراق النفطية قبل الحرب مع إيران وبعدها، فيقول: «لم يكن العراق بحاجة إلى القروض والتسهيلات الائتمانية في عقد السبعينات، خصوصاً بعد تأميم النفط الذي اتّخذ قراره الراحل صدام حسين حينما كان نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة مع رئيس مجلس قيادة الثورة رئيس الجمهورية الراحل أحمد حسن البكر، حيث ازدادت عائدات النفط من مليار دولار سنوياً إلى أن وصلت 26.4 مليار دولار عام 1980 » لكنه يوضح: «لم يكن الإنفاق العسكري المتزايد طوال فترة السنوات الثماني للحرب العراقية الإيرانية السبب الوحيد في تراكم الديون على العراق التي كان بدايتها منتصف عام 1984، وإنما أيضاً بسبب الانخفاض الكبير في إيرادات النفط جرّاء توقّف تصدير النفط عبر المنفذ الجنوبي الذي كان يصدّر العراق من خلاله ما يقارب ثلثي

صادراته المحدّدة من قبل الأوبك، حيث أصبح المنفذ المذكور ضمن نطاق القصف الإيراني اليومي، بالإضافة إلى إيقاف سوريا التصدير من خلال الأنبوب المار عبر أراضيها إلى البحر المتوسط بطاقة تصدير تصل إلى 800 ألف برميل يومياً عام 1982 مساندة لإيران في حربها مع العراق، ما أسهم بالفعل في تراكم نصف ديون العراق البالغة 42 مليار دولار (عدا ديون الخليج) عند انتهاء الحرب عام 1988، ولم يبقَ سوى أنبوب النفط التركي بطاقة نصف مليون برميل يومياً». ويضيف أن انخفاض أسعار النفط في منتصف الثمانينات كان له «تأثير كبير في الوضع الاقتصادي» إذ تم اتخاذ «إجراءات تقشفية» في كثير من القطاعات بهدف ضمان عدم تأثر «خطط تأمين الغذاء والدواء والنفقات الخاصة بدعم المجهود الحربي». ويوضح: «لأوّل مرّة يتمكّن قطاع التصنيع العسكري بعد تولي صهر الرئيس الفريق حسين كامل مهمّة الإشراف على القطاع المذكور من تأمين نسبة عالية من احتياجات القوّات المسلّحة من الأعتدة الخفيفة وأعتدة المدفعية والقنابل وفقاً للتقارير الدورية التي كانت تَرد إلى الدائرة الاقتصادية من هيئة التصنيع العسكري بالإضافة إلى تطوير مدى الصواريخ لتصل إلى طهران، والتي كان لها تأثير في نتيجة الحرب لصالح العراق. ولقد تولّى الهيئة قبل الفريق حسين كامل كلّ من جواد لاوند، والفريق عامر السعدي، والفريق الركن الطيار جسام الجبوري، ولفترة قصيرة حامد يوسف حمادي». ويتابع: «تبنّت قيادة التصنيع العسكري المتمثّلة بالفريق حسين كامل وكوادر التصنيع وبموافقة الرئيس، سياسة التوسّع في بناء القاعدة الصناعية الحربية. وإنتاج السلع الحربية المتطوّرة، والوصول إلى حلقات متقدّمة في تكنولوجيا الإنتاج الحربي، والعمل على استكمال برنامج الطاقة الذرية السلمي والحربي بعد أن تمّ نقل مهمّة ذلك من هيئة الطاقة الذرية إلى هيئة التصنيع العسكري. ومع ذلك كلّه أعطى الرئيس الراحل أولوية لتسديد ديون العراق. كانت تلك

الأهداف العديدة والكبيرة والطموحة تتطلّب موارد مالية ليست بالقليلة. وكان العراق الذي يمتلك ثاني احتياطي نفطي في العالم بعد السعودية، وأصبحت لديه طاقات تصديرية تصل إلى أكثر من أربعة ملايين برميل يومياً عن طريق المنفذ الجنوبي للعراق وعن طريق تركيا والسعودية، ولديه تفاؤل بتأمين الموارد الماليّة لتحقيق تلك الأهداف بالإضافة إلى تسديد الديون التي تحققت على العراق إبان الحرب الإيرانية العراقية. وكان هذا التفاؤل يستند إلى استمرار التحسّن في أسعار النفط التي وصلت إلى 18 دولاراً للبرميل».

يوضح: «لقد كانت عائدات النفط لا تلبّي الأهداف المشار إليها سابقاً. وبدأ التنافس الحاد بين هيئة التصنيع العسكري، وبين بقية الوزارات والجهات المسؤولة عن تنفيذ خططها المدرجة في المنهاج الاستثماري، والموازنة الجارية. ولقد أصبح الفريق حسين كامل بحكم السمعة التي اكتسبها في تطوير الإنتاج الحربي في السنوات الأخيرة من الحرب مع إيران، وصلة القرابة والمصاهرة من الرئيس الراحل، صاحب الكلمة الأولى في الدولة بعد الرئيس الراحل صدام حسين الذي كان بالإضافة إلى كونه رئيساً للجمهورية، رئيساً لمجلس الوزراء في الوقت ذاته. وتمّ تعيين الفريق حسين كامل نائباً لرئيس اللجنة الاقتصادية (غرفة العمليات الاقتصادية سابقاً)، والتي أصبح يرأسها نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية الدكتور سعدون حمادي، وعضوية وزراء التجارة، والمالية، والتخطيط ومحافظ البنك المركزي (وكنت آنذاك أتولّى مسؤولية وزارتي التجارة والمالية في آن واحد) ليؤثّر في القرار الاقتصادي لصالح هيئة التصنيع العسكري ووزارة الصناعة على حساب القطاعات الأخرى».

يقول الراوي: «رغم اعتراضي المتواصل في اللجنة الاقتصادية ولجنة الموارد الماليّة على هذا الموقف الجديد فإن رئيس اللجنة وأعضاءها الآخرين

لم يكونوا قادرين على معارضة نائب رئيس اللجنة. وحينما علم الرئيس الراحل بالأمر اتّصل بي هاتفياً وطلبني على عجل وأن أجلب معي الحاسبة التي يعلم الرئيس الراحل بأنها لا تفارقني وذلك لشرح الموضوع. وكان حاضراً في اللقاء لطيف نصيف جاسم، عضو القيادة القطرية ووزير الثقافة والإعلام. على أثر اللقاء ألغى قرارات اللجنة الاقتصادية فيما يتعلّق بجميع تخصيصات وزارة التجارة في المنهاج الاستيرادي المقترح لعام 1990 والتي تمّ تقليصها من اللجنة الاقتصادية، وأضاف خمسمائة مليون دولار إضافية لفقرة الغذاء، وطلب مني الظهور في ندوة تلفزيونية مع رئيس المؤسّسة العامّة للإذاعة والتلفزيون ماجد السامرائي، للإعلان عن تخصيص نصف مليار دولار لشراء لحوم وحليب كبار وأجبان للشعب العراقي بسبب التحسّن في أسعار النفط. وأبلغ الرئيس الراحل الفريق حسين كامل بحضوري وحضور عضو القيادة القطرية لطيف الدليمي بأن (صواريخك لا قيمة لها إذا جاع شعب العراق)»

هيئة التصنيع العسكري:

يوجه الراوي انتقادات لكشف هيئة التصنيع العسكري عن إنتاجها إعلامياً والمبالغة فيه، قائلاً: «بدلاً من المنهج السرّي المعتمد من الدول المنتجة للأسلحة وعدم الاعتراف بالمحظور منها رغم إنتاجها لها، فإن المشرف على هيئة التصنيع العسكري وكوادره القيادية تبنّوا سياسة مغايرة، وذلك بالإعلان عن برامج وخطط ومنتجات التصنيع العسكري من دون التحسّب لردود الفعل الدولية، خصوصاً الولايات المتّحدة الأميركية وإسرائيل، حيث كان يتمّ الإعلان عن تلك البرامج قبل الوصول إلى الإنتاج الفعلي للأسلحة والمبالغة في الإعلان عنها وكشفها، خصوصاً السريّة منها أمام بعض الزائرين من الرؤساء والملوك. وكان الفعل الإعلامي الأوسع نطاقاً والأكثر ضرراً على التصنيع العسكري وعلى العراق هو إقامة معرض للصناعات

العسكرية على أرض معرض بغداد الدولي التابع لوزارة التجارة، ودعوة وسائل الإعلام المحلّية والعربية والدولية، ودعوة سفراء الدول المقيمين والوفود لزيارة أجنحة المعرض والاطّلاع على المنتجات وعلى الخطط المستقبلية من خلال الشروحات التي كان يقدّمها ممثّلو هيئة التصنيع العسكري في أجنحة المعرض للزائرين. ولقد صادف أن رافقت بعض المسؤولين ومنهم نائب رئيس الجمهورية طه ياسين رمضان، واستمعت إلى شروحاتهم المبالغ فيها. وكان هذا الإجراء بحدّ ذاته يمثل عنصر استفزاز وتحريض للإدارة الأميركية وإسرائيل اللتين كانتا تتابعان كلّ خطوة لها أثّر في تهديد أمن إسرائيل».

غزو الكويت والعقوبات:

يقول الراوي عن فترة ما بعد الغزو العراقي للكويت عام 1990:

«كوني وزيراً للتجارة، ووزيراً للمالية بالوكالة، عندما فرض الرئيس بوش الحصار الأميركي الشامل على العراق، وجمّد أرصدته وممتلكاته في الولايات المتّحدة، توجّهت صباح يوم 3 أغسطس (آب) 1990 إلى البنك المركزي للاطّلاع على موجودات العراق من العملة الصعبة في البنوك الخارجية وفي خزائن البنك المركزي. طلبت من محافظ البنك صبحي فرنكول والذي كان من الكوادر المصرفية المهنية البارزة في العراق أن يبدأ فوراً بتحويل أرصدة العراق المودعة في البنوك كافة خارج العراق إلى البنك المركزي الأردني، إلا أنه اعتذر عن تنفيذ ذلك باعتبار أن البنك المركزي ليس مرتبطاً بوزير الماليّة وإنما مرتبط مباشرة بديوان الرئاسة في رئاسة الجمهورية. وطلب أن أستحصل موافقة رئيس الجمهورية. اتّصلت بسكرتير رئيس الجمهورية حامد يوسف حمادي، لعرض الموضوع على الرئيس لاستحصال موافقته والذي أجابني بعد ساعتين بموافقة الرئيس على السير بالإجراء». ويتابع: «أما في داخل العراق فلا توجد مبالغ بالعملة الصعبة مودعة في البنك

المركـزي أو في مصـرفي الرافديـن والرشـيد الحكوميـين سـوى مبالـغ عائـدة للسـفارات الأجنبيـة والمنظّمـات الدوليـة لتغطيـة نفقاتهـا المحلّيـة وكميـة مـن الذهـب مودعـة في خزانـة البنـك المركـزي اشـتراها محافـظ البنـك المركـزي الأسـبق حسـن النجفـي في فتـرة السـبعينات ولـم يتـمّ بيعهـا في الثمانينـات في أثنـاء الحـرب الإيرانيـة العراقيـة بسـبب انخفـاض سـعر أونصـة الذهـب عـن سـعر الشـراء البالـغ 450 دولاراً للأونصـة آنـذاك. وقـدّر المحافـظ قيمتهـا بمـا لا يتجـاوز خمسـمائة وخمسـين مليـون دولار بالإضافـة إلـى المخشـلات الذهبيـة التـي تبرعـت بهـا الماجـدات العراقيـات لدعـم المجهـود الحربـي في أثنـاء الحـرب الإيرانيـة العراقيـة، والتـي قـدّر المحافـظ قيمتهـا بحـدود خمسـة وخمسـين مليـون دولار في ضـوء ذلـك أصبـح الرصيـد المتـاح مـن العملـة الصعبـة الـذي هـو بيـد الدولـة بحـدود 700 مليـون دولار. وهـذا المبلـغ يشـكل 28 في المائـة مـن الحاجـة السـنوية للغـذاء المسـتورد».

يـروي الـراوي قائـلاً: «في يـوم 13-8-1990 طلبنـي الرئيـس الراحـل مـع وزيـر الزراعـة والـري محمـود الصبـاغ، واجتمعنـا معـه في كرفـان في إحـدى مـزارع الرضوانيـة. وأبلغنـا بـأن نسـتعدّ للحـرب. وأبلغنـي في الاجتمـاع أن أبـدأ فـوراً بخـزن القمـح والشـعير تحـت الأرض (بطريقـة الجفـر باللغـة المحلّيـة) لحمايتهـا مـن الضربـات الجوّيـة المتوقّعـة علـى صوامـع خـزن الحبـوب إذا نشـبت الحـرب، وكذلـك تشـتيت الخزيـن الغذائـي في مواقـع متفرّقـة في بغـداد والمحافظـات وللغـرض نفسـه. كمـا تمّ اعتمـاد سياسـة دعـم أسـعار شـراء الحبـوب (القمـح والشـعير والأرز) بأسـعار مشـجّعة مـن وزارة التجـارة تعلـن سـنوياً. ووافـق علـى طلبـي حصـر الذهـب المتـاح لـدى البنـك المركـزي لأغـراض البطاقـة التموينيّـة. كمـا وافـق علـى طلبـي إعـادة اسـتحداث الشـركة العامّـة للمطاحـن والأفـران التـي تتولّـى إنتـاج الدقيـق والخبـز والصمـون، وتشـرف علـى المطاحـن والمخابـز العائـدة للقطـاع الخـاصّ، والتـي تمّ دمجهـا مـع شـركة تجـارة الحبـوب عـام 1988 ضمـن حملـة ترشـيق أجهـزة الدولـة، وإعـادة تعيـين مديرهـا العـام السـابق

غازي الربيعي. وصدر بعد يومين قرار من مجلس قيادة الثورة بذلك، كما أبلغني الرئيس بإيقاف تجهيز النخالة إلى وزارة الصناعة تحوّطاً للاضطرار إلى استخدامها للاستهلاك البشري».

عن الاستعدادات العراقية لحرب الكويت عام 1991، يقول الراوي: «تمّ تأمين حاجات كلّ محافظة من الموادّ الغذائية والحبوب كافة لكي لا يحصل عجز في خزين أي محافظة في أثناء الحرب ويصعب إيصال الغذاء لها من المحافظات الأخرى من خلال المناقلة التي تجري في الظروف الاعتيادية. وتمّ التركيز في الخزين الاستراتيجي على محافظتي كربلاء والنجف لأنهما محافظتان دينيتان يُستبعد أن تتعرضا للقصف الجوّي. والأمر نفسه بالنسبة إلى محافظات الحكم الذاتي التي عُدّت هي ومحافظتا كربلاء والنجف من المحافظات الآمنة. ويضاف إلى ذلك إبلاغ أصحاب المطاحن والأفران في بغداد والمحافظات بتأمين خزين كافٍ من الوقود لاستمرار عملهم إذا تعرّضت المنشآت النفطية للقصف الجوّي.

قبل أسبوع من انتهاء المهلة الزمنية من مجلس الأمن للعراق سافرت إلى عمّان، ومنها إلى اليمن للقاء الرئيس الراحل علي عبد الله صالح للسماح للوزارة بنقل حمولة باخرة السكر، والتي تمّ تفريغها في ميناء الحديدة من الشركة الناقلة مباشرةً بعد فرض الحصار، إلى ميناء العقبة الأردني. وصلت إلى العاصمة صنعاء وكان الرئيس علي عبد الله صالح في مقرّه الثاني في عدن. رافقني في سفرتي إلى عدن الدكتور محمد سعيد العطار وزير الاقتصاد اليمني. وأصدر الرئيس اليمني موافقته على السماح بنقل الباخرة حسب طلبي. وذكر في أثناء دعوة الغداء أن رأي القيادة اليمنية أن الحرب ستحصل، وأن التجمّع العسكري لقوّات التحالف هدفه الأساسي هو تدمير الجيش العراقي، والحرب ستقع في كلّ الأحوال، وطلب نقل هذه الرسالة إلى الرئيس، وتمّ إبلاغ الفريق عبد حميدي مرافق الرئيس بذلك».

بدء الضربات الأميركية في يناير (كانون الثاني) 1991م:

«لقد كنت أتابع مع المديرين العامّين نشاط شركات وزارة التجارة في بغداد ومديري الفروع في بقيّة المحافظات اشتدّ القصف الجوّي على الطريق، ورسم خطّاً نارياً شكّلته سلسلة القنابل من طائرات تبيّن لاحقاً أنها بـ52 على يسارنا في الجهة الأخرى للطريق السريع المتوجّه نحو البصرة يتحرك بالاتّجاه الذي نسير فيه. كانت الكتلة النارية المتحرّكة لو انحرفت بالمليمترات من الجو لكنا داخلها. عندها شعرنا بأننا اقتربنا من النهاية، ولكن إرادة الله أنقذتنا. استمرّ الوضع على هذه الحال، والقصف المتبادل شديد لمدّة ثلاثة أرباع الساعة. بدأ القصف يخفّ فطلبت من السائق أن يفتح الضوء الجانبي ثمّ الضوء العادي لحين خروجنا من الطريق السريع إلى مدينة الناصرية عبر الطريق القديم. وصلنا إلى مدينة الناصرية منتصف الليل وهي في ظلام دامس وعند دخولنا المستشفى أُصبنا بصدمة لا تقلّ عمّا شاهدناه في الطريق، حيث جثث الشهداء من المدنيين مكدّسة في ممرّات المستشفى نتيجة حملة جوية عنيفة على الناصرية». ويقول: «لقد تعدّت الحملة الجوّية لقوّات التحالف هدف إخراج القوّات العراقية من الكويت لتحمل خطّة تدميرية للعراق وتقويض كلّ المنجزات التي حققها والتي ليس لها علاقة بالحرب».

صدّام يرفض عرضاً حول التسوية في الشرق الأوسط:

يقول الراوي في كتابه: «بتاريخ 4 أغسطس (آب) 2010، أخبرني سكرتير الرئيس الراحل حامد حمادي ونحن معاً في الزنزانة نفسها في سجن الحماية القصوى في الكاظمية العائد لوزارة العدل العراقية بعد انتقالنا من معتقل كروبر تحت سلطة القوّات الأميركية منذ اعتقالي في 23 أبريل (نيسان) 2003، أنّ الرئيس الراحل قد كلّفه بكتابة مذكراته، واقترح عليه عنوان (كنت سكرتيراً للرئيس صدام) وقد أكمل كتابتها في المعتقل، حيث

يتمتع بذاكرة قوية صافية، وكان كفؤاً ودقيقاً في أداء عمله كسكرتير مع ميزة التغطية الكاملة والدقيقة للقاءات الرئيس مع الضيوف. وكانت القيود المفروضة على سرّية المعلومات قد انتهت بعد احتلال العراق. وتعرّفت على حامد يوسف حمادي، لأوّل مرّة عند مباشرتي العمل في رئاسة الجمهورية بداية الشهر الأول من عام 1982، حيث كان يشغل منصب مدير الديوان مع صديق الرئيس الشخصي حاتم العزاوي المستشار السياسي، وصديقه الشخصي الآخر اللواء صادق شعبان، والدكتور حكمت عمر الحديثي، بالإضافة إلى اللواء طارق حمد العبد الله سكرتير الرئيس أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية الذي استمرّ بعمله حينما تولّى الرئيس الراحل منصبه كرئيس للجمهورية في يوليو (تموز) عام 1979. (وكان هؤلاء الثلاثة عند مباشرتي العمل يشكّلون الكادر المتقدّم في ديوان الرئاسة). ولقد كان المتوقّع أن ينشر تلك المذكّرات، إلا أنه انتقل إلى جوار ربّه بعد بقائه في غرفة الإنعاش على جهاز التنفس الصناعي في دبي لمدّة تزيد على نصف عام، وجدت نفسي مضطراً لأن أشير إلى المعلومة التالية التي لها صلة بموضوع القوّة العسكرية والصناعية التي خرج العراق بعد انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، وصلتها بقضية الصراع العربي الصهيوني. وتتلخّص المعلومة وحسبما أوردها مضموناً وليس نصّاً:

في يوم 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 1989 سافرت بطائرة خاصة إلى جنيف في سويسرا لتسلم رسالة من شقيقه برزان، ممثّل العراق الدائم في جنيف، موجّهة إلى الرئيس صدام حسين من جهة لم يشأ ذكرها. وتضمّنت فحوى الرسالة الموجّهة إلى الرئيس بأنكم خرجتم بقوّة عسكرية وصناعية في التسليح لا يحتاج إليها العراق بهذا الحجم بعد انتهاء الحرب. ونحن لا نطلب منك أن تقبل بمشروع التسوية بين إسرائيل والفلسطينيين ولا أن تكون جزءاً منه. ولكن الذي نطلبه أن تكفّ يدك عن إسرائيل، وألا تتدخّل بين الطرفين في حلّ الموضوع، وتتخلّى عن موقفك المتشدّد. ونحن

ليس لدينا تحفظ أن تكون أقوى زعيم في المنطقة. ويستطرد حامد يوسف حمادي: قدّمت الرسالة في ملف البريد بعد عودتي. وبعد عشر دقائق عادت الرسالة وعليها تعليق الرئيس نصّ قول الرسول : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه». يقول دخلت على الرئيس وقلت له: سيدي ما التوجيه الذي أبلغ به؟ فأشار بيده إلى التعليق. واتّصلت هاتفياً بشقيق الرئيس برزان لأبلغه بعدم الموافقة. وكان الردّ: أريد جواباً واضحاً. فقلت له: تأتي إلى بغداد لتسلمه. وحينما وصل الجواب إلى مصدر الرسالة كان رد الفعل: ضاع العراق»

لم يكن كتابا يسرد مؤلفه تفاصيل واحداث يسلط الضوء عليها وانما كان بحق وثيقة تاريخية تحكي قصة شعب تعرض لأبشع حصار في التاريخ في محاولة لتجويعه وتركيعه للنيل من صموده وبسالته. فكتاب درء المجاعة عن العراق احتوى على وثائق ومواقف واحداث دونها مؤلفه الدكتور محمد مهدي صالح وزير التجارة العراقي الأسبق الذي اشهره في عمان امام حشد من نخب عراقية وعربية في عمان قبل ايام. وسلط الراوي عبر 16 فصلًا من كتابه الضوء على محطات مضيئة من معركة الحياة بين من سعى لتدمير العراق وتجويع شعبه عبر الحصار وبين شعب أبي وقيادة حكيمة واجهت مشروع التدمير وانتصرت على صفحاته الشريرة. وتنبع أهمية الكتاب من كون مؤلفه قد عاش سنوات الحصار العجاف وكانت مهمته كبيرة في صد رياح التجويع عبر تامين الغذاء للعراقيين ودرء المجاعة عنهم عبر البطاقة التموينية التي حفلت بفقرات غذائية تكفي لسد رمقهم وكانت بمثابة حائط صد في مواجهة صفحات الحصار الذي دام 13 عاما. ويكشف الراوي في معرض سرده لمسلسل حصار العراق عن الإجراءات التي اتخذتها وزارة التجارة في مواجهة الحصار وخاصة في السنوات السبع الأولى قبل تطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء في نهاية عام 1996 والإستعدادات التي اتخاذها

القياد العراقية منذ عام 1997 ولغاية احتلال العراق لمنع انقطاع الغذاء أثناء فترة تطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء والدواء. وخصص المؤلف فصلا عن اعتقاله لدى القوات الامريكية لعدة سنوات واعتراف أحد الجنرالات بأنهم كانوا يتوقعون أن يتسبب الحصار في هلاك العراقيين بعد ستة أشهر، وأنهم فوجئوا بصمودهم وقدرتهم على المطاولة طيلة 13 عاما من فرض الحصار وكيفية نجاحه في مواجهة محدداته و قدرة العراق على تفادي قرارات الحصار.

هنا شبه المؤلف موقف الأردن في دعم العراق في مواجهة الحصار بانه كان رئة العراق وحامل قنينة الاوكسجين لكي تستمر الحياة وهي وقفة تاريخية تسجل للأردن وقيادته ويكشف الراوي عن طلب رئيس الوزراء السوري الأسبق مصطفى ميري الذي زار العراق قبل الاحتلال من الرئيس الراحل صدام حسين ان يتعامل العراق مع سوريا مثل تعامله مع الأردن فكان رد صدام ان الأردن حالة خاصة. ويسلط الراوي الضوء على رفض العراق المساومة على موقفه القومي من قضية فلسطين برفضه عرضًا صهيونيًا بالتخلي عن دعم شعب فلسطين والانخراط بالتسوية السلمية مقابل وعد صهيوني برفع الحصار عن العراق والاعتراف بالرئيس صدام حسين زعيمًا عربيًا لكل الامة ويوضح الراوي كان رد صدام –ضاع العراق –.

يستذكر المؤلف موقف صدام عندما حضر دعوة عشاء أقامها له الراحل الملك حسين في عمان وعندما شاهد انوار القدس انهمر الدمع من عينيه في لحظة عكست موقفه القومي الذي لا يتزعزع من نصرة شعب فلسطين وتحرير القدس من دنس محتليها.

يخلص مؤلف كتاب (درء المجاعة عن العراق) إلى القول ان حصار العراق وتجويع شعبه كان مقدمة وصفحة من صفحات غزوه واحتلاله وما يعزز هذا

الانطباع ان ادارة بوش الابن وحليفه توني بلير كانا قلقين وغير مرتاحين الى حد المفاجأة من صمود العراق الى حد افشال صفحة الحصار في أيامه الأخيرة ما دفعهم الى حشد الرأي العام ضد العراق وايجاد المبررات لاحتلاله عبر حملة تحريضية لتعبئة العالم ضد العراق بحجة تهديده للأمن والسلم الدوليين بامتلاكه أسلحة دمار شامل اثبتت الوقائع بعد احتلال العراق بطلان وكذب هذه المزاعم.

جواد هاشم [9] : (مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدام):

هنا تحضر شهادة الدكتور جواد هاشم وزير التخطيط العراقي السابق الى جانب شهادات دامغة أخرى، تصلح كأدلة وسندات يعتمدها كتاب التاريخ العراقي الحديث، فقد ألتزم جواد هاشم باعتماد الموضوعية والحقيقة في العديد من القضايا والمواقف، كما انه تعمد أن ينقل بعض الحوادث السياسية والشخصية كما جرت أمامه ومن داخل المؤسسة البعثية باعتباره واحدًا منها، ليترك للقارئ الفطن أن يحلل ويتعرف على الخطوط العامة للسياسة العراقية في تلك الفترة، بالإضافة الى معرفة تلك الشخصيات التي حكمت العراق فترة من الزمن، وتحليل عقلياتها.

ضمن شهادات أخرى سبقه في تسجيلها عدد من السياسيين العراقيين، منهم من رحل الى الدنيا الآخرة، ومنهم من لم يزل ينتظر، غير أن تلك الحقائق المرة التي لم يزل العراق يتحسس طعمها، كانت تشكل صورة كاملة عن مجريات الحكم وشخصيات الحكام. يشير الكاتب الى طلب شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري منه أن يكتب عن تجربته مع البعث، بعد أن خصه بأبيات شعرية لم يزل يحتفظ بها، فأن الكاتب لم

(9) جواد محمود هاشم: اقتصادي عراقي، ولد في عين تمر سنة 1938. انتقلت عائلته إلى كربلاء ثم بغداد حيث أتم دراسته الثانوية سنة 1955. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه سافر إلى لندن ليلتحق بكلية فيكتوريا ويلتقي بطالب حسين الشبيب الذي أقنعه بالانضمام لحزب البعث العربي الاشتراكي. عاد إلى العراق في صيف 1956، والتحق بكلية الإدارة والاقتصاد في جامعة بغداد ويتخرج سنة 1960، وعين فيها معيدًا. قُبل بعدها في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وحصل على شهادة الماجستير سنة 1963 ثم الدكتوراه في سنة 1966 وعاد للعراق سنة 1967، حيث عين أمينًا عامًا بالوكالة للمجلس الأعلى للتربية والتنمية الاجتماعية الذي كان يترأسه رئيس الوزراء طاهر يحيى. شغل منصب وزير التخطيط للفترة من 30 تموز 1968 حتى 25 كانون الثاني/ يناير 1971، تفرغ بعدها للعمل مدرسًا وأستاذًا مساعدًا في الجامعة المستنصرية، ثم عاد لشغل المنصب من جديد للفترة 15 أيار/ مايو 1972 حتى 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1974. عمل بعدها في مجلس قيادة الثورة، كما عمل مستشارًا رئاسيًا. في 6 أيار/ مايو 1977، غادر العراق إلى أبي ظبي في الإمارات العربية المتحدة ليشغل منصب رئيس صندوق النقد العربي. وفي 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1978، استدعي إلى بغداد لتحقق المخابرات معه، لكنه أفرج عنه في يوم 24 من الشهر نفسه وعاد إلى أبي ظبي في اليوم التالي. بقي في المنفى بعد انتهاء عمله في أيار 1982. عند تأسيس شركة إنفستكورب سنة 1982، كان ضمن أول مجلس إدارة للشركة. لما انتهت فترة رئاسته لصندوق النقد العربي في أيار/ مايو 1982، وبسبب خلافات سياسية مع صدام حسين، لم يرجع إلى العراق فأقام في لندن. وفي أوائل حزيران/ يونيو 1982، بعث باستقالته من منصبه مستشارا رئاسيا لصدام حسين، لكن الحكومة العراقية تجاهلت طلبه ذاك. وبين حزيران/ يونيو 1982 وتموز/ يوليو 1983 تلقّى عددًا من التهديدات من الاستخبارات العراقية، وبسبب المشكلات مع الحكومة العراقية، لم يقدر جواد هاشم أن يمارس عمله في شركة إنفستكورب ولا أن يحضر مقابلات اللجنة التنفيذية ومجلس الإدارة، وفي 7 كانون الثاني/ يناير 1983 استقال منهما، فقُبِلَت استقالته في 16 شباط/ فبراير 1983.

يدون في كتابه هذا ملخص لنتائج هذه التجربة، بعد أن وضع شذرات من الحوادث التي مرت، وهو يساهم في بناء دولة مؤسسة البعث التي تحولت الى مؤسسة العشيرة والعائلة.

يقينا أن ما سجله جواد هاشم من لقطات بقيت في ذاكرته، يساهم من خلالها في أبراز الصورة الحقيقية لبعض الشخصيات التي تسلقت السلطة في العراق، كما انه ساهم بشكل حيادي في توصيف بعض تلك الشخصيات بشكل محايد بقدر الإمكان، وبذلك فأنه تنحى جانبًا عند التعرض للتحليل النفسي والاجتماعي، تاركًا الأمر إلى المختصين في هذا المجال للتعمق في تحليل تلك الشخصيات التي مرت في التاريخ العراقي، ومنها البكر وصدام والجزراوي وبعض الأسماء التي مرت في الذاكرة العراقية.

قدم الكتاب بفصل تضمن بيانات ومعلومات أساسية عن العراق، ثم عرض وقائع مهمة من تأريخ العراق المعاصر، غير أن الكاتب لم يعط وجهة نظره في انقلاب 8 شباط/ فبراير 1963، ولا ما عكسته من نتائج سلبية على صعيد المستقبل العراق، ويمكن أن يكون تبرير هذا التغافل ناتج عن عدم وجوده في العراق، الا أن السيد جواد هاشم يوضح مراحل تعرفه على البعث منذ العهد الملكي، وانتسابه الى تنظيمه، ولقاءاته المتكررة مع قياداته، يوجب عليه أن يعطي وجهة نظره في تلك الأهداف وتلك الممارسات، وما جرت على للعراق من ويلات وخراب لم يزل يعاني منها حتى اليوم، والى أين انتهت تلك الأهداف والشعارات؟ ورأيه الشخصي من خلال عمق التجربة السياسية والعملية التي خاضها، ابتداءً من الزمن القومي وحتى الزمن البعثي الثاني، وانتهاءً بخضوعه إلى التحقيقات في سجن المخابرات العامة.

يشير السيد جواد هاشم في الصفحة 31 من كتابه الصادر عن دار الساقي 2003، أن السيد علي صالح السعدي (كان أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث في العراق)، والذي أقصي من مركزه الحزبي والوظيفي، وتم إبعاده إلى

مدريد، صرح بأن القيادة الجديدة (قيادة البكر) غير شرعية وإنها جاءت (بالقطار الأمريكي)، وبالرغم من ترديد تلك التهمة التي ينفيها البعثيون وتؤكدها قياداتهم، (لاحظ مذكرات طالب شبيب ndash; ومذكرات هاني الفكيكي)، الا أن السيد جواد لم يعط رأيًا حول عربات ذلك القطار، حيث يذكر في الصفحة 271 من الكتاب انه يفتقد الى الوثائق التي تدعم تلك الأقاويل، ويتابع انه بحث كثيرًا في الوثائق فلم يعثر على الكثير، ومع هذا فلم يكشف لنا هذا القليل، غير انه وجد على وثيقة واحدة صادرة من شعبة المصالح الأمريكية في بغداد بتاريخ 24 أبريل/ نيسان 1980 تشير إلى وجود مصدر موثوق به داخل القيادة العراقية وله اتصال مباشر مع الإدارة الأمريكية!! دون أن يتعرف أو يكشف أسم العنصر.

يعرض أيضًا في فصل خاص بعض الشخصيات والأحداث المهمة في تاريخ العراق، فيشير السيد جواد هاشم في الصفحة 49 من الكتاب إلى حادثة مهمة تؤكد التزام الدولة العراقية بالطائفية منذ العهد الملكي، وما تعرض له السيد جواد في عدم قبوله بكلية الطيران، بالرغم من المكانة الاجتماعية والإمكانيات المالية التي تميز بها والده وعائلته، تدل بشكل واضح وصريح ما كان يدور في أروقة الدولة العراقية.

في مطلع العام 1967 عاد الدكتور جواد هاشم الى العراق، وتمكن أن يحتل مواقع متقدمة في الدولة العراقية، باعتبار أن الخط القومي الحاكم في تلك الفترة، والذي أشار له الدكتور هاشم، حيث حدده حسب وجهة نظره، في مركز القرار المتمثل بكل من طاهر يحيى التكريتي والدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور خير الدين حسيب، وخلال عمله بمجلس التخطيط تعرف على البكر، يذكر الدكتور هاشم انه قام بتزويد البكر بمحاضر جلسات المفاوضات مع شركات النفط بصورة سرية، مع تزويده بتحليلاته وآراءه في تلك المفاوضات، بالإضافة إلى تعاونه في تعيين أعداد من خريجي الدراسة

الإعداديـة حسـب طلـب البكـر في أماكـن محـددة، وتعـددت لقـاءات الكاتـب بالبكـر، وبالرغـم مـن علـم السـلطة بهـذه اللقـاءات، فـأن أي إجـراء أمنـي أو احترازي لـم يتخـذ بشـأنها، مـا يـدل علـى تسـاهل النظـام القومـي مـع تحـرك البكـر ومجموعتـه في تلـك الفتـرة، وتمكينهـم مـن اسـتعادة السـلطة بيسـر وسـهولة بذلـك الانقـلاب الداخلـي يـوم 17 تمـوز/ يوليـو 1968.

يذكر جواد هاشم في الصفحة 66 أن طاهر يحيى التكريتي سأله عند تقديمه أوراق المتقدمين للعمل، (أن هل قابلت المتقدمين إلى العمل شخصيًا للتأكد من صحة المعلومات، أجبته نعم قابلت اغلبهم وتأكدت من صحة المعلومات. سكت رئيس الوزراء برهة وعاد يتصفح الوثائق التي أمامه، ثم فاجأني بسؤال جديد.

- هل كانت مقابلتك لأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش جيدة؟.
- ارتبكت وهممت بتدبير جواب لسؤال غير متوقع ولكن طاهر يحيى أردف قائلًا:
- دكتور نحن جميعًا على درب (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) مثلنا في ذلك مثل البكر وعماش.....).

في الصفحة 93 يذكر جواد هاشم عن سؤال صالح مهدي عماش عن أسباب اختياره الدكتور عبد العال الصكبان وكيلًا لوزارة المالية، وهو على حد تعبير عماش من العناصر الرجعية والناصرية وهو أيضًا من أهالي الديوانية. وتلك الإشارة المهمة التي ستقترن بأدلة أخرى تؤكد نمط التفكير الذي يفكر بها قادة الحكم البعثي، ومجرد كون الدكتور الصكبان من أهالي الديوانية تشكل له تهمة كبيرة، حيث أن أهل محافظات الفرات والجنوب ضمن دائرة إتهام السلطة.

في الصفحة 94 يشير الكاتب إلى ما قاله خالد مكي الهاشمي وزير الصناعة من أن الدكتور رشيد الرفاعي وعلي الجابر من صنف واحد بينما الدكتور عدنان شريف من جماعتنا الشرفاء (والقصد الطائفي هنا واضح) حيث أن الرفاعي والجابر شيعيان.

الحادثة المهمة التي تعتبر من الشهادات الأكثر أهمية ما أورده الدكتور جواد هاشم في الصفحة 95 حيث يقول: (دخلت المكتب فوجدت فيه وزيرين آخرين هما الدكتور احمد عبد الستار الجواري وزير التربية، والفريق حماد شهاب التكريتي وزير الدفاع وعضو مجلس قيادة الثورة، ويبدو أن الجواري وشهاب كانا في حديث عن محافظات العراق، سمعت شهاب يقول للجواري إن جميع سكان المنطقة التي تقع بين المحمودية وجنوب العراق هم (عجم)، ولابد من التخلص منهم لتنقية الدم العربي النقي.

استغربت كلام حماد شهاب وقلت له: فريق حماد أنا من مدينة عين التمر التابعة لكربلاء، وحامد الجبوري من مدينة الحلة، فهل يعني إننا عجميان؟ ام أنك تقصد شيئًا آخر، تردد شهاب في الإجابة وتدخل الجواري محاولًا (تصحيح) ما تفوه به شهاب....، بلغ بي الانزعاج حد إني تناولت ورقة من مكتب حامد الجبوري وقررت تقديم استقالتي من الوزارة، كتبت استقالة من سطرين وتوجهت إلى مكتب سكرتير رئيس الجمهورية بانتظار مقابلة البكر.

لم يطل انتظاري، دخلت على الرئيس وعلى محياي مظاهر الامتعاض، بادرني الرئيس بالسؤال عن سبب امتعاضي، فأخبرته بما حصل، وقدمت إليه الاستقالة، قرأها الرئيس ثم ابتسم وأردف قائلا: ألا تعرف حماد شهاب أنه رجل بسيط لا يفهم من أمور السياسة شيئًا. ولكنه يا سيادة الرئيس عضو في مجلس قيادة الثورة، فإذا كان هذا منطق عضو في أعلى سلطة في البلد فكيف يمكن للعراق أن يتقدم، الا يعكس قول حماد شهاب اتجاها خطيرًا لمسيرة الحكم. ضحك البكر وقال: دكتور لا يمثل حماد شهاب أي اتجاه، حماد شهاب حمار، ثم مزق الاستقالة).

هذه شهادة مهمة يدلي بها البكر بحضور الوزير جواد هاشم بحق حماد شهاب الذي كان يقود اخطر وأقوى مؤسسة في العراق، فهو رجل بسيط لا يفهم من أمور السياسة شيء ومع هذا كان عمودًا من أعمدة السياسة العراقية، وعضوًا في أعلى سلطة تشريعية، وهذا الرجل البسيط ليس سوى حمار في إشارة الى أن ليس له عقلًا يستحق التقدير كما يقول البكر.

أما ما قاله حماد شهاب بحق الشعب العراقي من المحمودية حتى أخر نقطة في الفاو، فهو بحق النظرة التي كان يقولها خير الله طلفاح ومعه كل الذين مارسوا تلك السياسة المريضة في التسفير والحجز والإعدامات بقصد التخلص من تلك الدماء التي قد تلوث نقاء الدم العربي على حد فهمهم.

غير أن شهادة مهمة يضيفها الكاتب على لسان جمال عبد الناصر في الصفحة 115، بعد الزيارة الرسمية التي قام بها بصدد اختيار صدام نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة بقوله: (علق جمال قائلًا: أن اختيار نائب رئيس مجلس قيادة الثورة أمر يعود إلى الأخوة في العراق، ولكن الواد صدام إحنا عارفينو، ده طايش وبلطجي). وهذه الشهادة التي يدلي بها عبد الناصر لم تأت من فراغ، إنما ترسخت لديه تلك المعلومات الدقيقة التي ترفعها له أجهزة المخابرات المصرية، عن تلك الشخصية التي حكمت العراق، وطايش من الطيش، وبلطجي تعبير مصري شعبي عن المحتال والرجل الذي لا تقيده ضوابط أخلاقية أو اجتماعية، حيث تكونت تلك المعلومات عن صدام من خلال وجوده في القاهرة كلاجئ بعد عملية محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم.

ثمة اشارة في الصفحة 148، بتأميم حصة كولبنكيان الذي كان يمتلك 5% من امتيازات النفط العراقي، وتقييد تلك النسبة من العائدات باسم قيادة الحزب، والاحتفاظ بعوائدها السنوية بحساب مستقل خارج العراق تحت أشراف صدام حسين.

كما أشار في الصفحة 189 إلى كلمة طارق عزيز في تشرين الأول/ أكتوبر 1989 معربًا عن شكر حكومة صدام وامتنانها لمساعدات الحكومة الأمريكية ووكالة الاستخبارات الأمريكية (السي أي أيه) في تزويد العراق بالمعلومات التعبوية والصور الفضائية التي ساعدت العراق في حربه مع إيران.

في الفصل الخاص بالزنزانة رقم 7 ص 231 يؤكد المؤلف على الأساليب المخابراتية التي ينهجها النظام، والطرق التي يتبعها في التعامل مع من يشك في ولاءه للقائد الضرورة، فكل عراقي متهم مهما كان مركزه، والقواعد التي يتم الاستناد عليها في تلك الاتهامات التي قد تنهي حياة الشخص، هي تلك الإخباريات والتقارير التي لا تقبل المناقشة.

يشير جواد في الصفحة 256 على الوظائف التي جمعها صدام والتي تشكل هاجسًا نفسيًا يعبر عن نزوعه للطغيان والدكتاتورية، فهو مسؤول عن مجلس التخطيط والمخابرات العامة ومجلس الأمن القومي ومكتب الشؤون الاقتصادية والمكتب العسكري ولجنة شؤون النفط والاتفاقيات ومكتب الثقافة والأعلام ومؤسسة البحث العلمي واللجنة العليا لشؤون الشمال، بالإضافة إلى كونه نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، ثم صار رئيسًا والقائد العام للقوات المسلحة ومنح رتبة مهيب ركن وهو المتخلف عن الخدمة العسكرية، بالإضافة إلى أمانة سر القطر، وفي هذه الفترة يختزل الدكتور هاشم المرحلة بقوله (لقد أصبح الاستثناء هو القاعدة، والقاعدة هي الاستثناء!).

غير أن جواد هاشم ينفرد بمعلومة مثيرة للجدل قد تكون وجهة نظره في أن يكون طه ياسين رمضان من الأيزيديين (ص 261)، ولعله عرف تلك المعلومة ممن اعتقد ذلك الأمر، وفي الحقيقة أن طه ياسين رمضان من منطقة العشائر السبعة، وهو كوردي القومية تنكر لقوميته وأهله، وكان صدام كثيرًا ما يغمزه بتلك القناة ويتندر عليه. أما المعلومة الثانية فهي

اعتقاد الدكتور جواد أن ناظم كزار من أبناء الديانة المندائية (هامش ص 215)، بينما لم يؤكد هذه الحقيقة احد، ومهما يكن دين أو مذهب كلا الأسمين ناظم كزار أو طه رمضان فقد تركا خلفهما تأريخًا مليئًا بالدماء والجرائم والسمعة الملوثة، واستحقا لعنة العراق والتاريخ.

في الصفحة 338 ينقل الكاتب جواد هاشم صورة اجتماع العائلة الحاكمة، وما دار من أحداث ومناوشات وقرارات، ذلك الاجتماع الذي أداره خير الله طلفاح بحضور البكر وصدام وعدنان خير الله وهيثم احمد البكر. لم يكتب السيد جواد عن درجته الحزبية؟. ولم يوضح أسباب انسحابه أو بقاءه في حزب البعث؟. وماهي الدرجة الحزبية التي وصلها؟. ولا رأيه بحزب البعث عند كتابة مذكراته.

ينهي الكاتب كتابه بكلمة أخيرة بحق صدام الذي صار القائد الضرورة، فيقول في الصفحتين 349- 350: أمتهن صدام كرامة العراق من دون مبرر أو منطق، وسحق المواطن العراقي فجعله مزدوج الشخصية وغير قادر على التحرر من الخوف، وحارب الفكر بالقرباج، والقلم بالسيف، والرأي بالاعتقال، والعدل بالعضلات، وألغى حلقات التاريخ بحث أصبح بطل الأمس خائنا، ومفكر اليوم جاهلًا. ولست أدري كيف سيواجه صدام نفسه، وهو يقف إمام مرآة التاريخ، فيرى ما حدث من ويلات على العراق، هذا البلد الغني بأرضه ومائه ونفطه وبشره.

سبق أن خاطب الضابط البعثي أحمد حسن البكر زميله الحزبي الشاب جواد هاشم بداية صيف 1968 قائلًا: لو استمر حكم البعث منذ عام 1963 لكان العراق قد أصبح جنة من جنان الدنيا، ومن تصاريف القدر، ولسوء حظ العراق والعراقيين، أتيحت فرصة ثانية لمغامري البعث استمرت خمسة وثلاثين عاماً لصنع جنتهم فاقتتلوا كما لم يقتتل غيرهم، وتآمروا كما لم يتآمر غيرهم، وفي المحصلة النهائية تمخض عبثهم عن إحدى

أكثر تجارب العالم العربي المعاصر مأساوية، جمهورية خوف بلا تنمية وحكم أجهزة أمن شردت أبناء العراق فلم تعد هناك حاجة إلى عدو ليقوم بمثل هذه المهمة،

يبقى أن المذكرات الصادرة عن دار الساقي هذا العام مشوقة في التفاصيل من حيث إنها تأتي من شاهد ومشارك في مرحلة حزينة من مراحل التاريخ السياسي للعراق، كما أنها تلقي الضوء على جوانب تتعلق بشخصيات عامة كانت مسؤولة عن إدارة دفة الأمور في إحدى أكثر الدول العربية أهمية، تفاصيل تتعلق بالبكر وصدام حسين وصالح مهدي عماش وطه ياسين رمضان المعروف بالجزراوي، وقيادات ومسؤولين آخرين أقل أهمية. وملامح الرواية تبدو مألوفة من حيث التفاصيل التي كنا قد سمعناها من عراقيي الديسابورا وقرأنها من قبل من خلال مذكرات الرفاق الذين نفذوا بجلدهم، وهي أولاً وأخيراً صراع على السلطة بين العسكر والحزبيين وسيطرتهم على المجتمع المدني، وهي ثانياً تفاصيل تصفية الرفاق لبعضهم بعضًا وتغطية شريعة الغاب هذه بمجموعة من الشعارات البراقة الخاوية حول المصير الواحد والحرية والرسالة الخالدة، وتبرز من خلال هذا السرد، والعديد من المقابلات والكتب السابقة، ضحالة المستوى الفكري لمن تولوا إدارة الشأن العام وإفلاسهم أمام مغريات التشبث بالسلطة والتمسك بالكرسي، والدكتور جواد هاشم في وصفه هذا يؤكد ما نعرفه من أن الانقلابات العسكرية والديكتاتورية الحزبية مسؤولة عن ضياع عقود من فرص التنمية، وأن العديد من الشخصيات المريضة والجاهلة استغلت غياب المؤسسية وتقاليدها لتتسبب في تجذير التخلف وتقطيع حقوق وإنسانية الإنسان العربي.

تأتي شهادة الدكتور جواد هاشم وأن كانت متأخرة، شهادة قريبة من موقع الأحداث، ومساهمة في العديد من الأحداث، وبالتالي فأن الدكتور

جـواد كان ينقـل في تلـك الشـهادة المقتضبـة، والتـي لـم يشـأ أن يتوسـع بهـا، بالرغـم مـن حاجـة التاريـخ العراقـي المعاصـر لمثل تلـك الشـهادة التـي تخللهـا الكثيـر مـن الاعتـدال والتحليـل الواقعـي والمنطقـي، البعيـد عـن العواطـف والميـول الذاتيـة، وباعتبـار أن الشـهادة التـي ذكرهـا الدكتـور جـواد هاشـم تصلـح أن تكـون أساسًـا يمكـن أن تسـاهم في رسـم صـورة للعـراق، المليء بالجـراح والأسـرار والخفايـا، والمحكـوم بالحديـد والنـار، والخـارج تـوا مـن الآتـون، وهـو محمـل بجراحـه وجـوع أبنـاءه وخـراب أرواحهـم، وتبعثـر مقابرهـم، وتبعثـر أولاده مثل تبعثـر ثرواتهـم، ولنـا ألأمـل أن يتوسـع الدكتـور جـواد هاشـم في رسـم العديـد مـن الحقائـق التـي لـم تـزل ذاكرتـه الحيـة، والتـي كان شـاهدًا عليهـا، وهـي مهمـة وطنيـة يتطلبهـا التاريـخ العراقـي لمـن يتصـدى لكتابـة التاريـخ بضميـر نقـي.

إياد علاوي[10]: علاقته بصدام حسين :

هو رئيس الوزراء العراقي الأسبق، سبق أن روى لـ«الشرق الأوسط» رحلته مع «البعث» وصدام وعراق ما بعد الاحتلال. ما أصعب الاقتراب من موضوع صدّام حسين على رغم المسافة التي تفصلنا عن موعد التفاف حبل المشنقة حول عنقه، في 30 ديسمبر (كانون الأول) 2006. والحقيقة هي أن الرجل مستفز، سواء أقام في القصر أو تمدد في القبر. ضحاياه وأعداؤه كثر. وأنصاره ليسوا قلائل. وفي العراق لا يداوي الوقت الجروح، بل يدسّ الملح فيها. صعب على من دفع ثمن ظلم صدام أن يقرأ أنه كان يقود مقاومة ضد الاحتلال الأميركي أو أنه كان نزيهاً في تعامله مع

(10) إياد هاشم حسين علاوي الربيعي: (31 أيار/ مايو 1944)، سياسي عراقي. تولى رئاسة الحكومة العراقية المؤقتة التي تلت مجلس الحكم العراقي وذلك بالفترة من 28 يونيو 2004 إلى 6 نسيان/ أبريل 2005. وهو خريج ثانوية كلية بغداد في العراق وخريج كلية الطب في جامعة بغداد عام 1970، حصل بعدها على شهادة الماجستير من جامعة لندن عام 1975 والدكتوراه من ذات الجامعة عام 1979. وعمل كاستشاري في علم الوبائيات والصحة البيئية لدى اليونيسف 1979–1981. ضمن حزب البعث، كان عضوًا في حزب البعث، وعضواً في مكتب في القيادة القطرية، إلا أنه اختلف مع رئيس الجمهورية ونائبه وترك العراق إلى بيروت عام 1971. وفي عام 1972 غادر إلى لندن لإكمال الدراسات العليا. وفي عام 1973 انتخب مسؤولاً للتنظيم القومي لحزب البعث في أوروبا الغربية وبعض بلدان الخليج العربي، إلا أنه استقال رسمياً من حزب البعث عام 1975. وخارج حزب البعث.. أسس منذ عام 1974 تنظيمًا سريًا مع بعض العراقيين منهم د .تحسين معله وهاني الفكيكي واللواء الركن حسن النقيب والعقيد سليم شاكر والمقدم الطبيب صلاح شبيب. وفي عام 1990 أعلن عن التنظيم بشكل علني وذلك في بيروت، وسميت الحركة حركة الوفاق الوطني العراقي، وانتخب أمينًا عامًا لها عام 1991، وجدد انتخابه عام 1993. تعرض لمحاولة اغتيال في شباط/ فبراير من عام 1978 أصيب خلالها وبقي في المستشفى لأكثر من عام للعلاج. في رحلة العودة للعراق.. كان علاوي أحد أعضاء لجنة المتابعة والتنسيق، التي أقرها مؤتمر لندن للمعارضة العراقية عام 2002، وهدفه التحضير لحكم العراق ما بعد صدام حسين، حيث كانت الولايات المتحدة تعد العدة لتغيير النظام في العراق واحتلاله. بعد الغزو الأمريكي للعراق بعام 2003 اختير عضوًا في مجلس الحكم العراقي الذي أسسته قوات التحالف الدولي. وترأس إحدى دورات المجلس وذلك في أكتوبر 2003، واستمرت فترة رئاسته شهراً كما كان محدد. ثم رئيساً للوزراء ذلك في 28 يونيو 2004 شكلت الحكومة العراقية المؤقتة لتخلف مجلس الحكم وسلطة الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر. وقد شهدت فترة حكمه القصيرة القيام بعمليات عسكرية لمواجهة نفوذ جيش المهدي حيث قاد حملة ضدهم في النجف ومحاصرتهم في الروضة الحيدرية، وقد تعرض على إثر ذلك لمحاولة اغتيال في إحدى الجوامع في مدينة النجف أدت إلى إصابته بجروح. وبعدها قام ببدء حملة عسكرية واسعة على الفلوجة للقضاء على المسلحين وقد أعطى الأوامر للقوات متعددة الجنسيات والقوات العراقية لبدء حملة عسكرية واسعة على مدينة الرمادي مشيراً إلى أن هذه العملية ستنتهي مع القضاء على المجموعات المسلحة التي تسيطر على المدينة. وسبق أن حازت القائمة العراقية برئاسته في انتخابات مجلس النواب العراقي والتي أجريت في 7 مارس 2010 على 91 مقعداً من أصل مقاعد البرلمان، واحتلت القائمة بذلك على المركز الأول من بين الكيانات المتنافسة. أما في انتخابات مجلس النواب العراقي الأخيرة لعام 2014 فقد تزعم ائتلاف الوطنية وتراجع عدد مقاعد كتلته إلى 21 مقعداً. ولقد حصل أياد علاوي على 229–709 صوت في بغداد حائزا بذلك على المركز الثاني في المحافظة بعد رئيس الوزراء السابق نوري المالكي. في 9 أغسطس 2015 أعلن حيدر العبادي عن مجموعة قرارات وإصلاحات أبرزها إلغاء مناصب نواب رئيس الجمهورية (نوري المالكي وأسامة النجيفي وإياد علاوي) ونواب رئيس مجلس الوزراء (بهاء الأعرجي وصالح المطلك وروز نوري شاويس) في استجابة للاحتجاجات الشعبية، وأقر مجلس الوزراء العراقي القرارات التي أصدرها.

المال العام. وصعب على أنصاره أن يسلّموا أن صورته تقتصر على صورة الحاكم البطاش، الذي أدمى بلاده والإقليم. لكن متعة الصحافة تكمن في الاقتراب من جمر المحطات وجمر القساة الذين تركوا بصماتهم على مصائر الخرائط وسكّانها.

ربطته بالرئيس صدام حسين «علاقات عمل ومودة» أفسحت المجال لمئات اللقاءات بينهما. كشف أنه التقى صدام حسين مرتين بعد سقوط نظامه. الأولى على أطراف الفلوجة في 11 أبريل (نيسان) 2003، أي بعد يومين من سقوط النظام، والثانية في بغداد في 19 يوليو (تموز) التي كانت في قبضة القوات الأميركية. وروى أن صدّام كان قريباً من ساحة الفردوس، حين قامت مدرعة أميركية بإسقاط تمثاله. وأضاف أن صدام قاد في الليلة نفسها، من مقر سري قريب، أول عملية لـ«المقاومة» ضد الأميركيين، وهي استهدفت مواقع لقواتهم في محيط مسجد أبو حنيفة النعمان بالأعظمية، وأنه كاد يشارك شخصياً في الهجوم لكن مرافقيه منعوه خوفاً عليه. وذكر أن صدام غادر بغداد إلى هيت، ومنها إلى الفلوجة، حيث عقد اجتماعاً أمنياً بحضور نجله قصي دعا خلاله إلى نصب كمائن للقوات الأميركية «كي يعرفوا أن العراق لقمة صعبة». وزاد أن صدام توجّه في اليوم التالي إلى بغداد، والتقى في مقر بديل بمنطقة الدورة محاسبي ديوان الرئاسة، وحصل منهم على مبلغ مليون و250 ألف دولار، ووقّع على ورقة تقول إن الهدف من القرض «إدامة عمليات للمقاومة ضد الاحتلال الأميركي وعليّ اعادتها في أقرب الأجلين». وأكد أن صدام تحدث في لقاء بغداد في تموز/ يوليو محذراً من «أن سقوط العراق سيعني امتداد نفوذ إيران حتى المغرب».

انتقد الرجل قرار غزو الكويت، معتبراً أنه قصم ظهر العراق، لكنه حرص على الإشارة إلى «نزاهة صدام الذي ادعى الإعلام أنه كدّس المليارات

في حسابات سرية في الخارج أو في مقراته. الفساد الحقيقي حصل بعد سقوط النظام، وأنتم نشرتم على لسان مسؤولين أن الأموال الضائعة هي في حدود 500 مليار دولار». قال الرجل الذي عاش مع صدام الشاب في منزل واحد أيام العمل السري: «تستطيع القول إنه قاسٍ أو مفرط في القسوة، لكنه كان يعدُّ نهب المال العام نوعاً من الخيانة». حرص أيضاً على القول إن صدّام كان يدير قسماً من المقاومة ضد الاحتلال الأميركي.

كان صدّام قابعاً في سجنه في قبضة الجنود الأميركيين. أبلغ الأميركيون عدداً من السياسيين أن باستطاعتهم زيارة سيّد بغداد السابق ورؤيته في المعتقل. ذات يوم فوجئ صدام بزيارة له قام بها عدد من معارضيه وأعدائه. عدنان الباجه جي وعادل عبد المهدي وهوشيار زيباري وأحمد الجلبي وموفق الربيعي، الذي سيشرف لاحقاً على عملية إعدامه. قال لي الجلبي لاحقاً إنه ذهب لرؤية ما كان يصعب تصوّر حدوثه، مضيفاً أن المشهد كان يستحيل حدوثه لولا التدخل العسكري الأميركي. اعترف أيضاً أن صدام لم يُظهر ندماً أو انكساراً، وحين استخدم الربيعي ألفاظاً خشنة في التحدث إليه، ردّ عليه بعبارات قاسية ومهينة.

كان باستطاعة عضو مجلس الحكم ورئيس الوزراء لاحقاً إياد علاوي أن يذهب لزيارة أكبر معتقل في تاريخ العراق الحديث. كان باستطاعته أيضاً أن يرشق صاحب الفأس التي أدمته بنظرة احتقار أو شتيمة. لم يفعل. قال إن اثنين امتنعا عن هذه الزيارة:

امتنعت عن الذهاب لأن الشماتة ليست من عاداتنا، خصوصاً حين يكون خصمك في وضع لا يسمح له بالرد عليك. ثم إن صدام، وعلى رغم كل ما فعله بالبلاد وبي شخصياً، كان رئيساً للعراق ولم أرغب في رؤية رئيس العراق أسيراً في سجن أميركي. يُضاف إلى ذلك أننا كنا نحلم بتأسيس العراق الجديد على قاعدة العدالة لا على قاعدة الثأر. الرجل الثاني الذي

رفض مشاهدة صدام في المعتقل هو مسعود بارزاني، الذي خاض ضده مواجهات طويلة ودفع آلاف الضحايا من عشيرته وشعبه وعائلته المباشرة. وكان بارزاني قال لـ«الشرق الأوسط» إنه لم يذهب لرؤية صدام معتقلاً «لأن الشماتة ليست من شيم الرجال».

يعتقد سياسيون عراقيون، وبينهم علاوي، إن طريقة إعدام صدّام فجر عيد الأضحى كانت خطأ حقق له ما كان يرمي إليه من مكابرة أظهرها لحظة الإعدام. فقبيل التفاف الحبل حول عنقه، نظر صدام إلى الربيعي وقال له: «هذا الحبل للرجال هذا الحبل للرجال». وكان صدام استقبل قرار المحكمة بإعدامه بشعارات من نوع «الموت للفرس» و«الموت لإسرائيل».

علاوي مؤيداً لمحاكمة صدام وإنزال العقوبة اللازمة بحقه:

شعرت يوم إعدام صدام بألم كبير. كنت اقترحت على الأميركيين أن يتم إجراء حوار مع الرجل علّه يروي لنا قصة العراق في السنوات الطويلة التي كان فيها صاحب القرار فيه. كنت أريد أن يعرف العراقيون ماذا حدث بلسان الرجل نفسه. لماذا حارب إيران، وما هي ملابسات الحرب؟ ولماذا غزا الكويت وكيف اتخذ القرار؟ لماذا أعدم وجبات كبيرة من المواطنين المعارضين ومن البعثيين أيضاً؟ ولماذا شنّ الحروب الفظيعة على الأكراد؟ ولماذا اغتال معارضين في الخارج أو حاول اغتيالهم وأنا بينهم؟ كنت أريده أن يروي وما كان لروايته أن تمنع محاكمته. كان من شأن رواية من هذا النوع أن تكشف الحقائق وتظهر المسؤوليات وتدفع الذين أعجبوا بصدام إلى التفكير في ثمار أعماله. للأسف، لم يحصل ذلك. توقيت الإعدام ساهم أيضاً في تعاطف عراقيين معه. هل كان ضرورياً إعدامه فجر يوم العيد؟ أضيفت إلى مشاهد الإعدام قصة أخرى حذّرنا منها مراراً. طلبنا أن يعالج موضوع ما سمّوه اجتثاث البعث على يد القضاء، لا أن يتحول إلى أداة سياسية لتصفية الحسابات واستبعاد أناس أو تهميشهم. للأسف، لم

يتم الاستماع إلى نصائحنا. هذه المسائل جعلت قسماً من الناس يحتفظون بمشاعر التعاطف مع صدّام، وهو أمر لا يمكن انكاره. مفهوم أن يعاقب من تلطخت يداه بالدماء لكنك لا يجوز أن تعاقب الناس لأنهم يؤيدون فكرة ما.

حل الجيش واجتثاث البعث:

هناك جدل لا يتوقف حول سلوك صدام حسين بعد سقوط نظامه، وفي الفترة التي تفصل عن موعد تمكّن القوات الأميركية من إلقاء القبض عليه. هل هناك صحة للأنباء التي تقول إنه اختار طريق المقاومة ونظّم مجموعات وأوكل إليها مهمات بينها نصب كمائن للأميركيين؟ يميل عدد من أعداء الرجل إلى عدم التصديق وربما يريدون شطب هذا الجانب من صورته كي لا يبقى منها إلا صورة مُشعل الحروب ومُرتكب المجازر ومُعمم ممارسات القهر والقمع. وسألت نفسي هل يستطيع رجل كإياد علاوي لا يزال يحمل في جسده أوجاع «فأس» النظام العراقي أن يكون موضوعياً في الإجابة ويعترف بأن الرجل لم يكن مجرد فار يبحث عن سلامته حين اضطر إلى مغادرة بغداد تحت وطأة الآلة العسكرية الأميركية.

أدى حل الجيش العراقي وتفكيك الدولة العراقية وإجراءات اجتثاث البعث إلى دفع آلاف العسكريين والموظفين والحزبيين إلى المجهول. من المعروف أن الإرهاب والإرهابيين حاولوا التستر بالمقاومة وكان تنظيم «القاعدة» بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وأبو مصعب الزرقاوي يهدفون إلى إيجاد شرخ أو أكثر في المجتمع العراقي. لم يجدوا أفضل من تعزيز النهج الطائفي بالقتل والتفجيرات والاغتيالات وإلقاء التهم تارة على الشيعة، وتارة أخرى على السنّة. هذا ديدن الإرهاب بأن يعمل في بيئة تقوم على الفوضى وأن تتحول البيئة بالتالي إلى حاضنة للإرهاب وليست بيئة طاردة له، لذا كان الإرهابيون يتشدقون بمقاومة الاحتلال ليضفوا الشرعية على إرهابهم بوصفه مقاومة.

كما استفاد الإرهاب كثيراً من اجتثاث البعث، ليس بتجنيد بعثيين وإنما بعزل ما لا يقل عن خمسة ملايين من البعثيين وعوائلهم واجتثاثهم من الحياة السياسية والمهنية وقطع أرزاقهم، مثلما استفاد الإرهاب من حل الأجهزة الأمنية والجيش العراقي. هذه كلها كانت هدايا من الاحتلال إلى الإرهاب الذي وجد البيئة المناسبة لنفث سمومه في العراق والعمل على تدمير نسيجه الاجتماعي.

كان عمل المقاومة يتصاعد والأعمال الإرهابية كذلك، والحصيلة تدفق الدم العراقي بغزارة، فقررت أن التقي بعض عناصر المقاومة. جرى ذلك عندما كنت في رئاسة مجلس الحكم وقبل أن أكلّف برئاسة الوزراء. أوصلت إليهم طلبي عن طريق بعض الأصدقاء، وكان بعض الذين التقيت بهم من أهل الفلوجة الكرام. طلبت منهم التوقف عن أي نشاط مقاوم كي لا تتم شرعنة العمل الإرهابي تحت يافطة المقاومة. تكلمت في هذا مع الإخوة من الفلوجة، الذين تربطني ببعضهم علاقات ووشائج تاريخية. فهموا قصدي وقالوا لي إن الزرقاوي بنى مؤسسات وأنفاقاً وأجهزة اتصالات واسعة في الفلوجة وبعض مناطق العراق الأخرى. أخبروني أيضاً أن أهل الأنبار والفلوجة أصابهم الضرر من الاحتلال فمئات الآلاف منهم ومن غيرهم قد تم اجتثاثهم أو تسريحهم بعد حل الجيش والأجهزة الأمنية.

شرحت ذلك لرئاسة مجلس الحكم، وكذلك للجانبين الأميركي والبريطاني من سلطات الاحتلال، لكن للأسف لم تكن هناك استجابة. كانت إجراءات الاجتثاث تنفذ على نحو مسيّس وبأسلوب عشوائي وليس بالقانون وعن طريق القضاء، لذا كانت نتائجها ضارة جداً بالبلاد. أدى ذلك إلى بقاء نسبة عالية جداً تمتاز بالكفاءة والمهنية من أبناء الشعب خارج إطارات العملية السياسية والسلطة مرفوضين ومهمشين ومعاقبين، مما أضعف العملية السياسية كثيراً. وقد طالت هذه العملية في معظمها معارضين لنظام الحكم الذي قاده صدام وجلّهم كان من الخارج.

اعتقال صدام:

كنت في زيارة إلى لندن وبلغني نبأ اعتقال صدام حسين. لم أفاجأ. هو ليس من النوع الذي يهرب، بل يواجه، وهو كان يقود المقاومة. ذكرت لك أنني اجتمعت ببعض أفراد المقاومة في بستان بأبو غريب. قلت لمجموعة منهم: «عيب عليكم أن تصبحوا في يد الزرقاوي وأنتم أبناء عشائر مهمة وعسكريين مهمين؟ لماذا سلّمتم أموركم إلى الزرقاوي وأصبحتم إرهابيين». أجابوا: «نحن لسنا إرهابيين، نحن ضد الأميركيين». قلت لهم: «نحن لا نقول لكم إننا مع الأميركيين وأنا شخصياً دخلت العراق مع عشائر الأنبار ولم أدخل مع الأميركيين ولم أركب دبابة أميركية ولا طائرة أميركية. نحن ضد الحرب وضد الاحتلال. مواقفنا واضحة من هذه القضية». في الحقيقة، كانوا كلهم يحبون صدام ويقاومون عن محبة جدية، وإلى الآن يحبونه. تسألني لماذا بقيت هناك شعبية لصدام في بعض الأوساط على رغم كل ما فعل. السبب الرئيسي لهذه الشعبية هو سوء تصرّف الحكام الحاليين. حكيت لك عن أسلوب تطبيق قرار الاجتثاث، والمشاعر ضد الاحتلال ويمكن أن نضيف ما ظهر من حساسية سنية - شيعية.

علاوي: عن علاقة صدام بالمال العام:

قبل الغزو الأميركي للعراق، كتب الكثير في الإعلام العالمي ومعه العربي عن الثروات المذهلة التي يمتلكها صدام. تحدثت بعض السيناريوهات عن مليارات الدولارات التي أودعها بأسماء مستعارة في مصارف بعيدة. قيل أيضاً إنه يكدّس في قصوره كميات ضخمة من العملات، فضلاً عن الذهب. وضاعف هذا الاعتقاد شعور العالم بأن صدام كان الآمر الناهي، فلا الحكومة تجرؤ على الكلام ولا البرلمان يجرؤ على رفع سبابته. حُكي أيضاً عن ثروات راكمها نجله عدي. وانتظر كثيرون أن ينجح الجنود الأميركيون الذين داهموا قصور صدام ومقرات إقامته في الكشف عن

الثروات المذهلة. لم يحدث شيء من هذا النوع. وساد اعتقاد أن صدام الذي بدد ثروات العراق في حروب الخارج والداخل لا بد أن يكون اشترى مساحات واسعة من الأرض أو وضع يده عليها.

كان من الطبيعي أن تسعى المعارضة العراقية بعد تسلمها الحكم إلى فتح دفاتر صدّام المالية. سألت علاوي فأجاب: «بعد سقوط صدام حسين أجرينا تحقيقات ولم نجد عليه شيئاً (في الموضوع المالي). لم نعثر على عقار مسجل باسمه. كل شيء مسجّل باسم الحكومة العراقية ووزارة الخارجية ومجلس قيادة الثورة».

ألم تعثروا مثلاً على أموال فرد: «أبداً أبداً. حتى طائرته الخاصة كانت مسجلة في شركة تملكها مجموعة من المخابرات العراقية. أقصد الطائرة الخاصة القادرة على الطيران لمسافات بعيدة». «لم نعثر على أي شيء باسمه». سألته إن كان ذلك يعني أنه لم يكن يحبّ المال، فأجاب: «لم يكن يحب المال ولم يكن يبحث عنه. كان يبحث عن السلطة والنفوذ والقوة. هذا هو صدام. لا يبحث عن المال والحرام. هذه الأمور لم يفعلها... كان صدّام محافظاً على الصعيد الشخصي. كان محافظاً جداً. وكانت العلاقة به قوية منذ بدء معرفتي به وحتى موعد مغادرتي العراق. تصوّر أنه أصرّ على أن يذيع شخصياً نبأ وفاة والدتي».

نِـزار عبـد الكـريم فيصـل الخزرجـي[11]: «كتـاب الأزمـة: مذكـرات مقاتـل»:

صـدر عـن المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، ضمـن سلسـلة «مذكـرات وشـهادات»، كتـاب الأزمـة – مذكـرات مقاتـل، وهـو الجـزء الثانـي مـن مذكـرات الفريـق أول الركـن نـزار عبـد الكـريم فيصـل الخزرجـي، بعـد جـزء أول عنوانـه الحـرب العراقيـة - الإيرانيـة (1980 – 1988) – مذكـرات مقاتـل، صـدر عـن المركـز العربـي (2014). ويتألـف الكتـاب مـن مقدمـة وتوطئـة وثلاثـة أقسـام تحتـوي مجتمعـةً علـى ثلاثـة عشـر فصـلًا، وخاتمـة وأربعـة ملاحـق، يسـتذكر فيهـا جميعًـا رحلتـه في الجيـش والتكليـف برئاسـة الأركان وخوضـه الحـرب ذات الأعـوام الثمانيـة مـع إيـران في سـنتيها الأخيرتيـن وتحقـق النصـر فيهمـا، ثـم انتقـاده أداء القيـادة في غـزو الكويـت الـذي تسـبب في إقالتـه وتكليفـه بمهمـة في الجنـوب أصيـب خلالهـا بجـروح بالغـة وكاد يُرسَـل إلـى إيـران أسـيرًا،

(11) نـزار عبـد الكـريم فيصـل الخزرجـي: (مواليـد 13 تشـرين الثانـي 1936 في الموصـل)، هـو رئيـس أركان الجيـش العراقـي الأسـبق للفتـرة مـن عـام 1987 ولغايـة 1990. ولـد في محلّـة النبـي شـيت في مدينـة الموصـل شـمال العـراق في 13 نوفمبـر 1936 لعائلـة عسـكرية فوالـده العميـد عبـد الكـريم فيصـل الخزرجـي الـذي شـارك في حـركات الأمـن الداخلـي، وحركـة مايـس 1941 ضـد القـوات البريطانيـة، وتطـوّع للقتـال في حـرب فلسـطين، ولـم يحصـل علـى موافقـة السـلطات آنـذاك فأحيـل علـى التقاعـد في عـام 1959 وهـو برتبـة عميـد في الجيـش العراقـي، وعمـه القائـد العسـكري إبراهيـم فيصـل الأنصـاري رئيـس أركان الجيـش العراقـي الأسـبق وكان جـده فيصـل محمـد الجسّـام الخزرجـيّ أحـد رؤسـاء عشـائر قبيلـة الخـزرج. تخـرّج في الكليـة العسـكرية ضابـط درع عـام 1958. في عـام 1960 تطـوع في القـوات الخاصـة وعمـل بمنصـب آمـر فصيـل سـرية لغايـة عـام 1964، ثـم نقـل إلـى منصـب مرافـق قائـد الفرقـة الثانيـة لغايـة عـام 1966. التحـق بكليـة الاركان وتخـرج فيهـا عـام 1968. عـيّن بمنصـب معـاون آمـر فـوج مظلـيّ، ثـم نقـل إلـى منصـب معـاون ملحـق عسـكري في موسـكو عـام 1968. في العـام 1971 نقـل إلـى منصـب آمـر فـوج مظلـي وشـارك في حـرب 1973 علـى جبهـة الجـولان، بعدهـا نقـل إلـى منصـب ملحـق عسـكري في الهنـد في عـام 1974 واسـتمر فيهـا لغايـة 1977. في عـام 1977 نقـل إلـى منصـب آمـر لـواء المشـاة الخامـس، ثـم قائـدًا للفرقـة السـابعة وشـارك في حـرب الشـمال مـن الحـرب العراقيـة - الإيرانيـة. وفي عـام 1983 نقـل إلـى منصـب أمـين سـرّ عـام وزارة الدفـاع، ثـم قائـداً للفيلـق الأول، بعدهـا في العـام 1986 تمّ نقلـه إلـى منصـب معـاون رئيـس اركان الجيـش للعمليـات، ثـم قائـدا للفيلـق الأول مـرة أخـرى. ثـم نقـل إلـى منصـب رئيـس أركان الجيـش في العـام 1987 ولغايـة 1990، وفي نفـس السـنة نقـل إلـى منصـب مستشـار في رئاسـة الجمهوريـة في إثـر غـزو الكويـت. قائـد عسـكري عراقـي بـارز، وُلـد عـام 1936، ودرس في الكليـة العسـكرية وتخـرج فيهـا عـام 1958. تطـوع في عـام 1960 في القـوات الخاصـة، ثـم التحـق بكليـة الأركان وتخـرج فيهـا عـام 1968. شـارك في سـائر الحـروب التـي خاضهـا الجيـش العراقـي منـذ مطلـع السـبعينيات، ومنهـا حـرب تشـرين الأول/ أكتوبـر 1973، حيـث شـارك علـى جبهـة الجـولان، والحـرب (العراقيـة - الإيرانيـة). تـدرّج في العديـد مـن المناصـب العسـكرية القياديـة، منهـا توليـه قيـادة الفيلـق الأول في الثمانينيـات. وفي عـام 1987، أصبـح رئيسًـا لأركان الجيـش، في الفتـرة التـي حقـق فيهـا الجيـش العراقـي مكاسـب في حربـه مـع إيـران، أفضـت إلـى وقـف إطـلاق النـار. بقـي في المنصـب إلـى عـام 1990، ثـم نُقـل إلـى منصـب مستشـار في رئاسـة الجمهوريـة، إثـر تحفظـه علـى قـرار غـزو الكويـت، كمـا يرويـه في مذكراتـه. غـادر العـراق مـع عائلتـه في عـام 1996. صـدرت لـه عـن المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات مذكـرات عـن الحـرب (العراقيـة - الإيرانيـة) بعنـوان: الحـرب العراقيـة – الإيرانيـة (1980 - 1988) - مذكـرات مقاتـل (2014)، وهـو يسـتكمل في هـذا الكتـاب مذكراتـه مـن انتهـاء الحـرب إلـى مغادرتـه العـراق.

ثم ازدياد مضايقات النظام وملاحقاته له حتى اضطر إلى مغادرة العراق. يقع الكتاب في 480 صفحة، شاملةً ببليوغرافيا وفهرسًا عامًّا.

حرب العراق وإيران.. من الهجوم الأول إلى معركة الدبابات:

لا تسقط ذاكرة رئيس أركان الجيش العراقي السابق نزار الخزرجي محطات الحرب مع إيران مطلع ثمانينيات القرن الماضي. فالرجل الذي شغل مهام عسكرية رفيعة إبان تلك الفترة، كان شاهدًا على يوميات الحرب وتفاصيل مجرياتها. في نهاية الحرب العراقية الإيرانية، جمع لقاء الرئيسين حافظ الأسد وصدام حسين عند حدود بلديهما، في ما بدا أنه محاولة ربما للتقرب أو الصلح بينهما، فماذا في ذاكرة الخزرجي عنه؟.

«حافظ الأسد قُطري وطائفي»:

يقول الخزرجي إن الرئيس صدام حسين ذكر في إحدى المرات أن لقاءً جمعه والأسد على الحدود العراقية السورية بغرض إعادة ترتيب العلاقات بينهما. وينقل عن حسين قوله إنه كان حينها قد طلب من مرافقه إلقاء القبض فورًا على حافظ الأسد إذا ما تطاول بكلمة واحدة خلال اللقاء، وأن يرميه بنيران مسدسه ليقتله إذا ما قام بالمقاومة. ويؤكد أن صدام حسين يمكن أن «يفعلها»، لافتًا إلى أن الرئيس العراقي السابق كان معتزًا بنفسه كثيرًا ولم يكن يسمح لأحد بإهانته، وإن صدرت عن رئيس دولة.

بحسب الخزرجي، فإن صدام حسين كان عروبيًا وبعثيًا حقيقيًا يؤمن بالوحدة والعروبة، حيث يتوقف عند قوله في إحدى المرات إن «إسرائيل أصبحت أمرًا واقعًا ومسندة ودولة نووية، لذا فإن التفكير بإزالتها بالقوة أمر غير منطقي». ويعرض لرؤية حسين بشأن إمكانية إزالة إسرائيل، بالإشارة إلى أنها «من خلال تقدّم العراق بشكل واضح، فتحذو بقية الدول العربية حذوه، بموازاة التقارب والتكاتف العربي فضلًا عن التماثل العربي

في السياسية والاقتصاد والعسكر». ويلفت إلى أن «صدام اعتبر أن إسرائيل ستكون بذلك قوة ثانوية، ويفضل العالم التعامل معنا على التعامل معها، وعند إهمالها، يمكن أن يعود كثير ممن جاؤوا إليها إلى بلدانهم، مذكرًا في الآن عينه بأن المرأة الفلسطينية ولّادة، وبمرور السنوات فإن نسبة سكانها العرب ستكون مرتفعة».

بالتذكير أن صدام حسين يؤمن بالوحدة العربية، يشير الخزرجي إلى أن الرئيس السابق كان يعتقد أن حافظ الأسد لا يمثل البعث، وأنه عنصر قطري وطائفي حكم باسم الحزب دون أن يعمل وفق مبادئه. ويلفت المسؤول العراقي السابق إلى أن السودان أرسل بداية لواءً «جيدًا» جاء إلى القاطع الأوسط، في الفيلق الثاني، لكن السودانيين الذين كانت بلادهم تشهد حينها حربًا أهلية أخبروا القيادة العراقية بأنهم يحتاجون إلى هذا اللواء، فأعيد إلى السودان من دون أن يشارك بأي شيء.

بشأن اليمن، أكد أن علاقة جيدة جدًا جمعت رئيسه حينها بصدام حسين، لافتًا إلى أن الأول كان يرسل لواءً كل بضعة أشهر إلى العراق ليشارك في الحرب. غير أنه يوضح أن «اللواء الذي كان يحضر لم يكن يمتلك مقومات اللواء الحقيقية؛ لا تدريب ولا إمكانيات ولا قدرات، لذا كنا نعيد تدريبه، وبمرور أشهر يصبح خلالها قويًا يتم سحبه، فيُرسَل لواء آخر بدلًا منه».

غارات جوية على المطارات الإيرانية:

كانت العملية العسكرية التي شنها العراق قد بدأت في 22 سبتمبر/ أيلول 1980. وكانت الفكرة الأساسية منها هي أن يكون الهجوم كاسحًا ضد القوات الإيرانية وفي العمق الإيراني، بهدف تعطيل الجيش الإيراني حتى لا يصبح تهديدًا للعراق في المستقبل. وحاول العراق حينها أن يقوم بالعملية العسكرية نفسها، التي قامت بها إسرائيل عام 1967، عندما دمّرت سلاح الجو المصري بشكل مفاجئ وكاسح. لكن ذلك لم ينجح فعليًا بالنسبة

للعراق. ويستعيد الخزرجي ما حصل بالقول إن 128 طائرة، قامت – كوجبة أولى – بعملية ضرب للمطارات والقواعد الجوية الإيرانية، ثم كرّرت الضربة بعد أربع ساعات بأربعين طائرة أخرى. ويضيف أن صدام حسين طلب، بانتهاء المهمة من قائد القوة الجوية، الاطلاع على الصور الجوية للضربات ليتم تقدير حجم الخسائر التي وقعت، غير أن الرد من القائد كان بأنه لم يتم التصوير، حيث تم رفع الكاميرات ووضع قنابل وأعتدة في مكانها. ويكشف أن صدام حسين، الذي عرف على الفور أن الضربات لم تكن مؤثرة، التفت إلى رئيس الأركان ووزير الدفاع قائلًا: توقعوا غدًا أن يشن الإيرانيون غارات جوية شاملة علينا. ويؤكد أن «ذاك ما حدث، حيث لم تدمر الضربات العراقية إلا عددًا محدودًا جدًا من الطائرات الإيرانية؛ 3 أو 4 على الأكثر».

إلى ذلك، يتوقف الخزرجي عند عدد الجنود العراقيين الذين شاركوا في «الاكتساح البري»، فيقول إن خمسة فرق اندفعت في القاطع الجنوبي: 3 مدرعة و2 آلية. أما في القاطع الأوسط، فاندفعت 4 فرق؛ واحدة مدرعة وواحدة آلية و2 مشاة آلي. ويشير إلى أن الجنود العراقيين وصلوا إلى جنوب الأحواز بنحو 10 أو 12 كيلومترًا، وتوقفوا هناك، كما وصلوا إلى الخفاجية. وبحسب الخزرجي، شرع الإيرانيون بعد مرور قرابة الشهرين بهجمات مقابلة، فهاجموا في 4 مناطق، ودفعوا من الأحواز قطعات الجيش العراقي إلى الخلف لتكون هذه المنطقة بعيدة عن المدفعية العراقية.

في الخفاجية، يوضح المسؤول العراقي السابق أنه تمت مهاجمة الفرقة التاسعة المدرعة بالفرقة 16 واللواء المظلي 55، وأوقعت خسائر كبيرة في الفرقة التاسعة، التي قامت بالانسحاب عبر النهر. غير أنه يوضح أن قيادة الفيلق الثالث قامت بهجوم مقابل باللواء المدرع العاشر، الذي كان يقوده عميد الركن محمود شكر شاهين، متحدثًا عن هجوم على الإيرانيين بكل دبابات اللواء الـ 120 والتي

وُضعت في صف واحد، فتم تدمير الفرقة المدرعة 16، والاستيلاء على 120 دبابة أخرى و86 ناقلة أشخاص مدرعة. ويردف بأن تلك كانت آخر معركة دبابات دخلها الإيرانيون، ولم يدخلوا من بعدها أي معركة مماثلة. ويوضح الخزرجي أن الغاية من الحرب كانت إبعاد القوات الإيرانية عن الحدود وليس تدميرها.

«استمر بالحرب لتركيز السلطات بيده»:

إلى ذلك، يذكر الخزرجي أن الغاية من العمليات التي رُسمت للأركان العامة ونفذتها، كانت إبعاد القوات الإيرانية عن الحدود العراقية لمسافة تصل إلى 100 كيلومترًا، وليس تدمير القوات المسلحة الإيرانية، ولذلك عندما جاء الرئيس الباكستاني ضياء الحق إلى العراق للتوسط لإيقاف إطلاق النار، وافق صدام فورًا لأنه اعتبر أن غاية العمليات تحققت من خلال إبعاد الخطر الإيراني عن الأرض العراقية. ويشدد على أن صدام لم يكن يفكر أبدًا بأن يستولي على المناطق الإيرانية، بل أعطى الإيرانيين درسًا وأبعدهم.

خلال ثمانِ سنوات من الحرب، قام العراق إما بالموافقة على وقف إطلاق النار أو قام باقتراح أو طالب بوقف إطلاق النار مع إيران لما لا يقل عن تسع مرات. غير أن إيران كانت في كل مرة ترفض ذلك، سواء أكانت متفوقة في الحرب أم خاسرة. ويشير الخزرجي إلى أن الإيرانيين، والخميني بالذات، استغل ما اعتبره اعتداء عراقيًا عليهم، فاستمر في الحرب لتركيز كل السلطات بيده، وتصفية جميع أعدائه بين العامين 1980 و1981 و1982، فأصبح الولي الفقيه الحاكم الوحيد والمطلق داخل إيران. ويوضح أن الخميني كان يؤمن تمامًا بأن العراق هو البوابة التي يجب أن يقتحمها ليسيطر عليها، بغرض الانطلاق إلى بقية الدول العربية.

تعليقًا على ما نُشر أخيرًا عن مصادر استخباراتية أميركية أشارت إلى أن صدام حسين كان مهتمًا جدًا بوقف الحرب لدرجة أنه أرسل وسطاء

إلى إيران ووصل به الأمر إلى اقتراح ذهابه شخصيًا إلى طهران للقاء الخميني الذي رفض استقباله، ينفي وجود أي فكرة لديه عن هذا الشأن. ويقول: «لا أعتقد أن صدام حسين من النوع الذي يطلب أن يذهب إلى الخميني ويزوره، أو يستعطفه إطلاقًا، فذلك ليس صدام حسين». ويعرّج الخزرجي على «ظاهرة» حالات انشقاق وتخاذل وانسحاب من جانب الجنود العراقيين عندما شنّ الإيرانيون هجومًا مضادًا، شارحًا أنها لم تكن كبيرة. ويلفت إلى أن بعض الجنود العراقيين من طائفة معينة كانوا متأثرين بالفكر الخميني الطائفي، ومن الممكن أن قتال بعضهم لم يكن في المستوى المطلوب، أو أن البعض منعهم عندما هوجموا استسلم على سبيل المثال. ويقول إن قسمًا محدودًا جدًا منهم انضم إلى الجانب الآخر وشكّل ما يسمى بـ «قوات بدر»، التي قاتلت العراق مع الجيش الإيراني، كاشفًا أن من بين هؤلاء من هم من أهم الساسة العراقيين حاليًا.

الخزرجي: ما له وما عليه:

الفريق أول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي له ما له، وعليه ما عليه؛ فمع اعترافه بأنه اشترك إثر ترؤسه هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة العراقية في تموز/ يوليو 1987، السنة الختامية للحرب العراقية - الإيرانية (1980-1988)، في حملة الأنفال على المناطق الكردية (وكانت قد استُهلت قبل تسلّمه منصبه)، التي اتُّهم فيها النظام السابق بقصف 200 قرية كردية بالغازات الكيماوية وتسببه في مقتل الآلاف من المقاتلين والمدنيين الكرد، فإنه ذكر في الجزء الأول من كتاب مذكراته أنه تعهد للرئيس صدام حسين بالنصر خلال عام واحد، وهو ما حصل. وقد شارك الخزرجي في سائر الحروب التي خاضها الجيش العراقي منذ مطلع السبعينيات، ومنها حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، حيث شارك على جبهة الجولان. أما في عام 1990، وحينما جنح الخزرجي إلى الواقعية

البنّاءة مع الرئاسة عشية حرب الخليج الثانية (حرب تحرير الكويت) ناصحًا بعدم القدرة على المجابهة نظرًا إلى معطيات رقمية وتقنية، أُعفيت تلك القيادة العسكرية المحنّكة من منصب رئاسة الأركان. فكان ما كان مما توقعه من حملات قصف جوي واسعة النطاق، شنتها قوات تحالف 37 دولة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، بداية من 17 كانون الثاني/ يناير 1991، تمهيدًا لتحرير الكويت، بلغت أكثر من 100 ألف طلعة جوية أسقطت 88500 طن من القنابل ودمرت البنية التحتية والعسكرية على نطاق واسع في كل من الكويت والعراق. وقضت على خيرة عناصر الجيش العراقي وضباطه، نتيجةَ عشوائيةِ الانسحاب من الأراضي الكويتية التي جعلت فرق الجيش وآلياته مكشوفة وهدفًا سهلًا. واستتبع ذلك فرض حصار شامل على العراق، لم يسبق أن واجهته أي دولة في العصر الحديث، استمر ثلاثة عشر عامًا وانتهى باحتلاله في عام 2003 . في حين كان العهد بالخزرجي لو بقي على رأس القوات المسلحة حتى يوم المنازلة، لكان على الأقل قد نجح في تنظيم انسحاب القوات وعدم فكّ الاشتباك مع العدو إلا بعد بلوغ الحدود الدولية للعراق، ولَما كانت مفاوضات خيمة صفوان بين منتصر ومهزوم، بل بين ندّين: جيش لا يزال متماسكًا داخل حدوده ويدافع عنها، وتحالف دولي استعاد الكويت إثر الغزو.

إنجازات وتقريران فإقالة ثم مغادرة:

يقول الخزرجي، في مقدمة كتاب الأزمة – مذكرات مقاتل، إنه كتاب يستأنف كتاب المذكرات الأول، وإنه بمنزلة الجزء الثاني منه، ويتابع فيه سرد أحداث ما بعد الحرب مع إيران، وما سماه «الحملة الشاملة لإنهاء التمرد في الشمال الكردي»، وملابسات تركه العراق في عام 1996. ويستعرض فيه أيضًا استراتيجيته في العمل خلال ترؤسه الأركان العامة بعد النصر العراقي العسكري على إيران عام 1988، وكيف أعدّ أفضل ضباط الأركان سلسلة طويلة من الدراسات

التحليلية للإخفاقات والإنجازات في سنوات الحرب الثماني، والمعضلات التي واجهت القطعات. ويشير في ذلك إلى أن من أهم إنجازات تلك الدراسات صياغة العقيدة القتالية للقوات المسلحة العراقية، وفقًا لأحدث معايير التنظيم والإعداد والتدريب والتجهيز والتسليح، ورفع القدرة على تحديد التهديدات الداخلية والخارجية ومواجهتها.

يتعرض الكتاب لـ«أزمة» غزو الكويت وتداعياتها، وبخاصة مؤتمر 17 أيلول/ سبتمبر 1990 الذي عقده صدام حسين في القيادة العامة للقوات المسلحة لمناقشة تقريرَي الخزرجي اللذين قدّمهما له بوصفه القائد العام للقوات المسلحة. وقد بيّن له الخزرجي فيهما بوضوح مخاطر الإصرار على البقاء في الكويت بعد غزوها ومجابهة قوات التحالف، واصفًا الحرب بأنها «لا أمل لنا فيها». وتطرق الكتاب إلى ردة فعل الرئيس الغاضبة ورفضه الحجج التي قدمها الخزرجي، وأمر بإقالته من رئاسة الأركان في اليوم التالي.

يرد في الكتاب أن الرئيس صدام كلّف الخزرجي، مع بدء الحملة البرية لقوات التحالف في الكويت، بتشكيل قيادة غربية في الناصرية بالجنوب لصد أي اختراق للعراق من هذه الجهة، على أن تلتحق بالقيادة الجديدة الفيالق والفرق التي ستنسحب من الكويت. إلا أن أيًّا منها لم يلتحق، ثم يعقّب بذكر ما أعقب ذلك من أعمال غوغائية، هاجمت مقرَّه في الناصرية وأصابته بجروح خطرة.

يُبدي الخزرجي، في الجزء الثاني من المذكرات، رأيه في شخصية الرئيس صدام، وتأثير الأهل والأقارب فيها، والسلبيات التي أنتجتها، والملاحقات والمضايقات التي سبّبها له ولأولاده، والتي لم تترك له سوى خيار مغادرة العراق مع عائلته.

يتألف كتاب الأزمة – مذكرات مقاتل من ثلاثة أقسام (القسم الأول ثلاثة فصول، والقسم الثاني – وهو أطولها – سبعة فصول، والقسم الثالث ثلاثة فصول). وبعد توطئة استعرضت مرحلة ما قبل الحرب العراقية – الإيرانية والتقارب مع «سورية الأسد»، والتعاون العسكري مع الأردن

وتطـورات مـا بعـد نجـاح الثـورة الإيرانيـة علـى السـاحة العراقيـة، تنـاول القسـم الأول، «جـردة حسـاب: مـا بعـد الحـرب العراقيـة – الإيرانيـة»، ثلاثـة محـاور. أولهـا مواطـن القـوة ومواطـن الضعـف بعـد الحـرب، وثانيهـا الدراسـات العسـكرية والاسـتراتيجية بعـد الحـرب، وثالثهـا التهديـدات الداخليـة (التمـرد الكـردي، الطائفيـة) والخارجيـة (التهديـد الإسـرائيلي) للعـراق.

في القسم الثاني «الأزمة: السياقات والمآلات»، أربعة محاور رئيسة. تناول الأول غزو الكويت والمفاجأة التي أحدثها وإدارة الصراع مع العالم بعده والفكر الاستراتيجي لدى القيادة العراقية. وعُني الثاني بإعفاء الخزرجي من منصبه وما أحاط به من ملابسات. وركّز الثالث على تكليف الخزرجي بعد إعفائه من رئاسة الأركان بمهمات رسمية في الشمال والغرب. وتمحور الرابع حول سقوط الناصرية خلال خدمة الخزرجي بين أيدي الشيعة المتحالفين مع الاحتلال الأميركي، وإصابته إصابة بالغة وأسره، وحرص آسريه خلال علاجه على إنقاذ حياته لإرساله إلى إيران حيًّا، ثم تحرير القوات العراقية للناصرية وطرد الثوار منها وإعادته إلى بغداد.

أما القسم الثالث، «ما إن وضعت الحرب أوزارها»، فيتكوّن من ثلاثة محاور. في الأول، يذكر الخزرجي التمردات التي جدّت في شمال العراق وجنوبه وإنهاءها بالقوة وما ساد بعدهما من أوضاع، كما يدلي فيه برأيه في اقتراح الرئيس صدام في بداية عام 1990 العمل بدستور جديد للعراق، ويبين أنه وإن بدا ديمقراطيًّا في الظاهر فإن هدفه المتواري بين الأسطر هو إضافة صلاحيات جديدة إلى الرئيس. ويدور الثاني حول شخصية صدام حسين وعائلته وأقربائه. ويعنى الثالث بالأيام الصعبة في العراق، التي بدأت مع الحصار والتحرشات والقوانين الدولية الجائرة، ولم تنته إلا باجتياحه وإزالة حكمه.

أرفق الخزرجي كتابه بأربعة ملاحق لشهادات عناصر عاصروا أحداثًا بالغة الأهمية وشهدوها حيةً، فأضفت على مادة الكتاب قيمة إضافية.

رعد مجيد الحمداني[12]: شهادة أدلى بها قائد الفيلق الجنوبي بالحرس الجمهوري:

هي شهادة أدلى بها قائد الفيلق الجنوبي بالحرس الجمهوري الجنرال رعد مجيد الحمداني والذي تحدث بإسهاب عن كواليس معركة بغداد، قال إن كل الجهود قد فشلت في إقناع القيادة العليا بضرورة إرسال التعزيزات إلى الجبهة، حيث أصيبت القوة الرئيسية في قطاع كربلاء بضربة قاسية. وإثر الضربات الأميركية المتتالية، تم استدعاء القادة أمام رئيس الأركان العامة للحرس الجمهوري بحضور قصي صدام وكان من بين الحضور رعد الحمداني ووزير الدفاع سلطان هاشم، وكان اللقاء هو الأهم في تلك المرحلة. قال الحمداني في شهادته، إن قصي افتتح الاجتماع بالإعلان عن أن أوامر الرئيس بالانتشار الفوري ضد تهديد التحالف المتوقع من الأردن، وعليه لابد من نقل فرقة «النداء» إلى الشمال وتحميلها مسؤولية الدفاع عن شمال بغداد، ثم أمر بزرع حقول الألغام شمال وغرب بغداد. أضاف الجنرال الحمداني: «الحديث عن إنشاء حقول ألغام جعلني أتيقن أنهم كانوا يعتقدون أننا نحارب إيران مرة أخرى».

---

(12) الفريق الركن رعد مجيد راشد الحمداني: ضابط عسكري عراقي من مواليد بغداد في عام 1951 م، كان يشغل منصب قائد الفيلق الثاني في قوات الحرس الجمهوري خلال الفترة من عام 1999 وحتى غزو العراق في عام 2003. تخرج من الكلية العسكرية العراقية عام 1970 م صنف الدروع.(بكالوريوس علوم عسكريه). كذلك خريج كلية الأركان العراقية سنة 1980 م.(ماجستير علوم عسكريه). وخريج كلية الحرب العراقية عام1992. (دكتوراه علوم عسكريه). تدرج بالمناصب العسكرية الآتية:-آمر كتيبة استطلاع بالجيش العراقي. -آمر كتيبة دبابات بالحرس الجمهوري. -آمر لواء مدرع بالحرس الجمهوري. -قائد الفرقة المدرعة السادسة بالجيش العراقي. -قائد الفرقة المدرعة (المدينة المنورة) بالحرس الجمهوري. -رئيس أركان الفيلق الأول بالحرس الجمهوري (فيلق الله أكبر). -قائد الفيلق الثاني بالحرس الجمهوري العراقي (فيلق الفتح المبين). مشاركاته. -شارك بقمع التمرد الكردي بالسبعينات وكذلك بحرب تشرين/ أكتوبر 1973 عندما ذهب الجيش العراقي للمشاركة في الحرب على الجبهة السورية. وشارك في حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية.) ما بين السنوات 1980-1988. وشارك في غزو الكويت في 2 آب/ أغسطس 1990. وشارك في حرب أم المعارك/الخليج الثانية (عاصفة الصحراء) في 1991. قاتل إبان معركة الحواسم/الغزو الأمريكي للعراق 2003. عمل بعدها في الأردن بمنصب رئيس قسم الدراسات العسكرية الإستراتيجية في دار العراق لدراسات المستقبل. كانت الحرب العراقية الإيرانية 1980-1988 هي المجال الذي نضجت فيه الخبرة القتالية والمهنية له حيث شارك في معظم معاركها ضمن سلسلة القيادة والاركان، ثم كان اجتياح العراق للكويت عام 1990 فقاد قوة الواجب الأولى للحرس الجمهوري منذ الشروع باجتياز الحدود الدولية بين البلدين حتى السيطرة على العاصمة في مدة قياسية جداً وهي خمس ساعات فقط. وحين تلت تلك الأحداث حرب الخليج الثانية عام 1991 والتي سميت باسم ام المعارك نجده مجازفا في نقد خطة الدفاع العراقية نقدا لاذعا مما عرضه لاتهام شديد نال من وطنيته. حين قرر الرئيس العراقي صدام حسين إعادة احتلال الكويت عام 1994 حاول اقناعه بالرجوع عن هذا القرار عبر عرض حقائق القدرات المتاحة بكل صراحة وما ستترتب عليه من نتائج مأساوية. أما في الحرب العراقية الأمريكية عام 2003 حاول الفريق الركن إقناع الرئيس العراقي بضرورة تغيير الاستراتيجية العسكرية إلى نمط قريب من حرب العصابات، أماط اللثام عن حقيقة خطة الدفاع عن بغداد وأسوارها، حيث كانت مسؤولية الدفاع للفريق رعد الحمداني تمتد جنوب بغداد بما يقارب 200 كم وعلى محوري نهري دجلة والفرات إلى حين سقوط بغداد حيث سلم الفريق رعد الحمداني نفسه للقوات الأمريكية. له كتاب (قبل أن يغادرنا التاريخ) يصف فيه الأحداث العسكرية بدءاً من الحرب العراقية الإيرانية عام 1980 ولحين سقوط بغداد عام 2003. وكتاب معارك الجيش العراقي الكبرى من عام 1973 حتى عام 2003. ظهر رعد الحمداني في لقاء من أربع حلقات مع برنامج رحلة في الذاكرة، والذي تبثه قناة روسيا اليوم الفضائية.

اعترض الحمداني على هذه الخطط التي ستبقي لديه فرقتين فقط لمواجهة القوات الأميركية التي تهاجم بغداد من الجنوب، ومن المحتمل أن يسيطروا على المنطقة ويعبروا الجسر فوق نهر الفرات في نفس الليلة مما يجعلهم على مسافة قريبة مِن بغداد. رد وزير الدفاع أن صدام اتخذ قراره ولا مجال للجدال.

هزيمة الحرس الجمهوري:

في الثالث من أبريل 2003، بدأت قوات التحالف في عبور نهر الفرات صوب العاصمة، ووجدت قوات الحرس الجمهوري نفسها وجهًا لوجه مع القوات الأميركية، مفتقرة إلى القوة البشرية والسلاح والروح القتالية. هُزمت قوات الحرس الجمهوري، تحديدًا اللواء العاشر مدرع، طليعة الجيش العراقي في الحرب ضد إيران، وأحد ألوية النخبة العراقية المدرعة في عهد صدام حسين.

كان انهياره يرمز إلى تلك النهاية الحتمية أكثر من أي شيء آخر، فهو اللواء الذي عزز البعث في السلطة، وكانت هزيمته أوضح نذير بسقوط بغداد. فوجئ الأميركيون بسرعة اختراقهم دفاعات الحرس الجمهوري في كربلاء، لكن لم يفارقهم الحذر من ظهور 15 ألف مقاتل من فدائي صدام، كما أن بعض التقارير كانت تشير إلى زيادة احتمالات استخدام أسلحة كيميائية. عقب انهيار الجيش العراقي، صرح قائد الحملة العسكرية الأميركية على العراق الجنرال تومي فرانكس أن عدداً من كبار ضباط الجيش العراقي تقاضوا رشاوي من الولايات المتحدة حتى يمنعوا قواتهم من القتال أثناء الحرب. تصريح الجنرال الأميركي وغيره من تصريحات زادت الأسئلة حول أسباب الانهيار السريع للجيش العراقي. لكن بعد عشرين عامًا على الحرب، لم يثبت أحدًا أمر الرشاوى المزعوم، ما رجح أن يكون تسريبات أميركية تدخل ضمن أدوات الحرب النفسية.

«خزائن خاوية»:

بعد الحرب، شكل عدم استخدام أي أسلحة محظورة هاجسًا لدى المحققين الأميركيين، حيث تم استجواب كبار قادة النظام العراقي منهم طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقي السابق. قال المحقق لطارق عزيز: «إذا كان العراق لا يملك أسلحة كيماوية فلماذا لم يحاول صدام حسين أن يوضح ذلك للعالم؟». إلا أن الإجابة كانت صادمة: «لم يستطع صدام أن يقول ذلك، لأنه يخشى إراقة ماء وجهه أمام جيرانه العرب. لا يريد أن يقول إن خزانته كانت خاوية، وليس ثمة سبب للخوف منه». وفي استجوابات أخرى، قال عدد من الضباط العراقيين للمحققين الأميركيين إنهم كانوا مقتنعين بأن الأسلحة الكيماوية موجودة وسيتم نشرها للدفاع عن بغداد، لكن لم يعترف أي منهم أن الأسلحة كانت ضمن كتيبته. وقال مسؤول أميركي إن الإجابة كانت موحدة: «يقول كل واحد من هؤلاء الضباط العراقيين إن وحدتي لم تكن لديها هذه الأسلحة، لكن الوحدة المجاورة لوحدتي يمينًا أو يسارًا كانت تمتلكها».

تقرير لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأميركي:

معركة المطار:

في 7 يوليو/ تموز عام 2004، خرج تقرير لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأميركي، وتضمن نقدًا تفصيليًا لاذعًا للتقديرات الاستخباراتية قبل غزو العراق. وأشار التقرير إلى مجموعة من مصادر غير موثوقة ومعلومات مضللة ساهمت في حجب بعض الحقائق.

لعل تصريح لويس رويدا مسؤول عمليات العراق في السي آي إيه هو ما يوضح كيف كانت مزاعم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل أو وجود علاقة له مع القاعدة مجرّد ذرائع وأن الهدف كان دوما الإطاحة بنظام

صـدام حسـين. وقـال رويـدا: «كنـا سـنغزو العـراق، حتـى لـو كان مـا بحـوزة صـدام هـو مجـرد رابـط مطاطـي ومشـبك ورق. كنـا سـنقول إنـه سيسـتخدم هـذه الأشـياء لفقـأ عينـك».

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 00249122094856 - 121566207
البريد إلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

كتابة المذكرات تزيد من تركيز الإنسان فيما يراه أو يسمعه لأنه سيكتب ذلك ويحرص على أن ينقله بموضوعية بلا خللٍ أو ملل. كذلك فكتابة المذكرات تخلق عند الإنسان شعورًا بالمسؤولية والثقة بالنفس فينقل الأحداث بكل موضوعية. وتشعرك بأن لديك ما تتحدث عنه وتفتخر به أمام نفسك وأمام الآخرين. هي فرصة لتجري تقييمًا لنفسك بين فينة وأخرى، والتقييم يشمل طريقة استثمارك لوقتك ومالك وعلاقاتك وقدراتك التعبيرية. وتحسن الحالة المزاجية النفسية، فهي تخلصك من شحنات سلبية علقت بنفسك. كذلك فهي إعادة صياغة يومك ورسمه بالكلمات، فالمذكرات تجعلك دومًا في قلب الأحداث الماضية تستلهم منها العبر والعظات.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation